د. عبد اللّٰه عبد الدائم

صراع اليهودية مع القومية الصهيونية

ـ الصهيونية ومستقبل إسرائيل ـ



دار الطليعة - بيروت

صراع اليهودية
مع القومية الصهيونية

بيروت ـ لبنان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس٣٠٩٤٧٠-١-٩٦١

د. عبد الله عبد الدائم

صراع اليهودية مع القومية الصهيونية

ـ الصهيونية ومستقبل إسرائيل ـ

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

سورة النمل، الآية: ٧٦

تصدير

١ ـ قد لا نعدو أن نفتح أبواباً مفتوحة، وأن نطرق دروباً نفضها الأدلّة والباحثون وطوتها الصحف والأقلام، إنْ نحن قلنا إن صراعنا مع العدو الصهيوني صراع ذو بعدين: بُعدٌ عربي وبُعدٌ إسرائيلي.

غير أن تحصيل الحاصل هذا يكتسب بعض المعنى إنْ نحن أضفنا إليه أن كلاً من البُعدين لا تحدّده بنيته الساكنة بل تحدده ديناميته وحركته المتجهة الى المستقبل.

ودينامية الوجود العربي ـ في توجّهها نحو المستقبل ـ تتأثر بعوامل كثيرة، ولكنها ـ في هذا المجال ـ لا بد أن تحدّد معالمها دينامية الوجود المضاد لها، نعني: الوجود الإسرائيلي.

ومن هنا كان لا بد من تحليل الوجود الإسرائيلي تحليلاً دقيقاً، من أجل معرفته حقّ المعرفة، ومن أجل اكتساب القدرة على مقاومته بالتالي، ما دامت المعرفة ـ على حدّ تعبير عالم الاجتماع الفرنسي: أوغست كونت Auguste Comte ـ هي القوة.

ومعرفة الوجود الإسرائيلي معرفة عميقة وافية ليست بالأمر السهل. فهذا الوجود القائم اليوم وريث مائة سنة على الأقل من العمل الصهيوني الدائب. وقد انضافت إلى أصوله الصهيونية على نحو ما حدّدها هرتزل وصحبه جهودٌ موصولة يشدّ بعضها أزر بعض أحياناً، ويناقض بعضها بعضها الآخر في معظم الأحيان. وليست منطلقات الصهيونية البديئة هذه لبوساً جديداً بعد ولادة الدولة الصهيونية، وما طفقت تتغيّر في بنيتها وأهدافها وطرائقها يوماً بعد يوم.

وقد عانت هذه الدولة الصهيونية منذ نشأتها من صراعات داخلية عميقة، تتزايد دوماً، كادت توصل هذه الدولة إلى شفا الحرب الأهلية (ثقافية كانت أو سياسية). هذه الصراعات المزمنة التي عرفها الكيان الصهيوني، والتي يشتد أوارها يوماً بعد يوم، هي التي نود الكشف عنها وعن جذورها وعما آلت إليه اليوم، في هذا الكتاب الذي نقدّمه للقراء في هذه الفترة الحسّاسة من الصراع العربي ـ الإسرائيلي، ليكون ذلك هادياً وعوناً لنا ولسياستنا ولعملنا العربي المشترك في مواجهة الخطر المحدق بنا جميعاً.

٢ ـ والأطروحة التي ينطلق منها الكتاب في وصفه لتلك الصراعات التليدة والجديدة

هي أن مصدر تلك الصراعات كلها هو الدعوة الصهيونية التي أطلقها هرتزل وصحبه، لدوافع مختلفة على رأسها الدوافع الإمبريالية الاستيطانية، والتي فرضها هؤلاء على اليهود فرضاً وعنوةً، وجرّوا إليها فريقاً من هذا الشتات عن طريق الخدعة والتزييف، ووفروا لها النجاح عن طريق الاعتماد على الإمبريالية الغربية والاستجابة لمصالحها، وعلى رأسها بريطانيا في البداية، والولايات المتحدة بعد ذلك.

٢ ـ ١ ـ وهكذا يتحدّث الكتاب الذي بين أيدينا عن صراع دُعاة الصهيونية في كثرتهم الكاثرة مع يهود الشتات في البداية، ومع معظم المذاهب الدينية اليهودية التي كانت قائمة في ذلك الحين، بل حتى مع الزعماء الصهاينة الذين كانوا يعارضون صهيونية هرتزل، ولا سيما فيما يتصل بالعودة إلى «أرض الميعاد» كما يقولون.

على أن الكتاب لم يتريث عند هذه الصراعات الأولى بين الحركة القومية الصهيونية الناشئة وبين الشتات اليهودي ـ ولا سيما فيما يتصل بالوطن القومي اليهودي في فلسطين ـ إلا ليُبيّن الأشكال الجديدة التي لبستها هذه الصراعات بعد ولادة الكيان الصهيوني، ثم في الواقع الإسرائيلي اليوم

٢ ـ ٢ ـ ومن هنا يتريث الكتاب عند الصراع بين اليهودية والقومية الصهيونية بعد ولادة الكيان الصهيوني، مبيّناً كيف أصبح المجتمع الذي أراد الآباء المؤسِّسون في زعمهم أن يكون بوتقة صهر للثقافات واللغات والإثنيات، مجتمعاً متعدد الأعراق ومتضارب الثقافات ومتعدّد الطوائف، وكيف تغيّرت وتفتتت الصورة الأسطورية المأمولة لتحلّ محلها صور أخرى عديدة لكل منها شرعيتها، يحكمها الصراع بين اليهودي والعربي، وبين السفاردي والإشكنازي، وبين «الصبرا» والقادمين الجدد إلى إسرائيل، وبين المهاجرين الروس وسواهم، وبين فلاشة الحبشة ومن عداهم، وبين الإشتراكيين والقوميين، وبين العلمانيين والمتدينين، وبين المتشددين دينياً (الحريديم) والقوميين الدينيين الصهاينة (وعلى رأسهم جماعة «غوش إيمونيم») الخ. . . على نحو ما برز جلياً في معركة الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة (١٧ أيار / مايو ١٩٩٩).

٢ ـ ٣ ـ على أن الكتاب لا يكتفي بالحديث عن هذه الصراعات التي ولّدتها القومية الصهيونية، بل يمضي إلى أبعد من ذلك، حين يوجّه عناية خاصة للحركات الجديدة التي ذَرّ قَرْنُها في العقدين الأخيرين في إسرائيل، والتي يُطلق عليها اسم حركات «ما بعد الصهيونية». وهي حركات مضت بعيداً في الكشف عن العورات الأساسية للصهيونية، مبيّنة أنها وراء الكوارث التي تتعرّض لها إسرائيل، ووراء ما يسودها من تفتت وتفكك، ومشيرةً بوجه خاص إلى أنها أوصلت إسرائيل إلى طريق مسدود، لا مخرج منه إلاّ بالعدول عن المنطلقات الصهيونية.

ومن بين هذه الحركات الداعية إلى زوال الصهيونية، يقف الكتاب بوجه خاص عند

حركة المؤرّخين الذين عرفوا باسم **«المؤرّخين الجُدد»**، وعند من اتبع سيرتهم من الأدباء وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والفلاسفة وسواهم.

فلقد كشف هؤلاء «المؤرّخون الجدد»، من خلال وثائق الدولة الرسمية والأرشيفات التي أُفرج عنها ـ بدءاً من نهاية السبعينيات ـ حقائق كثيرة كانت قد أخفتها عن أعين معظم الإسرائيليين أكاذيب الإعلام الرسمي، وأهم هذه الحقائق:

ـ ما رافق قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ من خداع وطرد لأهالي البلاد وتخريب للمدن والقرى.

ـ لجوء الصهاينة ـ من أجل تعبئة الشعب اليهودي ـ إلى تزوير تاريخ اليهود، وإلى إعادة تأويله تأويلاً غائياً يجعله في خدمة القضية الصهيونية.

ـ اصطناع صورة مشرقة عن تاريخ لدولة إسرائيل، يتحدّث عن بطولات «الهاغانا» وسواها، ويقدّم تاريخاً جميلاً بطولياً مجيداً ليست فيه أخطاء، هو تاريخ الأخيار ضد الأشرار!

وهكذا دعا «المؤرّخون الجدد» هؤلاء ومن تبعهم إلى إعادة صياغة المجتمع الإسرائيلي، بل إلى وضعه كله موضع التساؤل والشك.

٢ ـ ٤ ـ ومن هنا أدى هذا النقد الجذري العميق الذي قام به «المؤرّخون الجدد» ومن والاهم، مفنّدين مزاعم الصهيونية وتزويرها لتاريخ اليهود ولتاريخ ولادة دولة إسرائيل، إلى مسألة أساسية ضخمة، لطالما ثار حولها الجدل، وهي: **مسألة هوية إسرائيل**. ولذلك أفردنا فصلاً خاصاً للحديث عن مواقف الإسرائيليين، على اختلاف منازعهم، من مسألة الهوية هذه. وأشرنا بهذا الصدد إلى مواقف الفئات الدينية تجاه هذه المعضلة وإلى تباينها، وإلى مواقف الفئات العلمانية منها. وانتهينا إلى الحديث عن هذا الصراع القائم حول الهوية بين تيارين أساسيين متصارعين يكادان يحتلاّن الموقف الحالي في إسرائيل بهذا الصدد: **تيار الهوية العلمانية، والتيار الديني المتشدد** الذي نجده بوجه خاص لدى أنصار ما يُدعى بالهوية الدينية الصهيونية الجديدة (والذي تمثله بوجه خاص جماعة «غوش إيمونيم» والمستوطنون وأنصارهم من الأحزاب الدينية، كالمفدال ويهدوت هتوراه وجماعة شاس إلى حد ما).

٣ ـ وهذا كله قادنا في خاتمة المطاف إلى الحديث عن الهدف الأساسي من بحثنا، نعني التساؤل عن **انعكاسات الصراع القائم في إسرائيل اليوم بين أصحاب الاتجاهات المختلفة** (بين الاتجاه العلماني والاتجاه الديني الصهيوني بوجه خاص) ـ وما يلحق بها من صراعات حول هوية دولة إسرائيل ـ **على مستقبل المواجهة بين العرب وإسرائيل، وعلى عملية السلام بوجه خاص.**

وللإجابة على هذا التساؤل، انطلقنا من جملة من الحقائق استخلصناها من بحثنا، يمكننا إيجازها فيما يأتي:

٣ - ١ - مما لا شك فيه أن الكيان الإسرائيلي يشكو عللاً متزايدة من التمزّق والتفكك الإيديولوجي، مصدرها الأساسي الصراع القديم الجديد بين من يريدون أن يتنكّروا للصهيونية ومبادئها، وعلى رأسها حق إسرائيل في «أرض الميعاد» المزعومة، وبين من يعتبرون تلك المبادىء الصهيونية قوام دولة إسرائيل ومبرّر وجودها وقوام بقائها.

٣ - ٢ - هنالك في إسرائيل نموٌ متزايد للأفكار الداعية إلى تجاوز المنطلقات الصهيونية، والمشكِّكة في هوية الكيان الإسرائيلي القائم، والداعية إلى بناء دولة ديموقراطية حديثة، تكون دولة لجميع المواطنين لا لفريق منهم، والمؤكِّدة على أن السؤال الذي ينبغي أن يُطرح فيما يتصل بهوية إسرائيل هو الآتي: «من هو الإسرائيلي؟» بدلاً من السؤال التقليدي الذي لم يجد - ولن يجد - جواباً، نعني: «من هو اليهودي؟».

٣ - ٣ - ومع ذلك كله، وعلى الرغم من التمزق الداخلي الذي تعاني منه إسرائيل والذي يتسع الخرق فيه على الراقع يوماً بعد يوم - فإنه ليس من المحتوم أن يؤدي هذا التمزق مهما تزايد إلى تقويض الكيان الإسرائيلي من داخله. فكثير من الدول قد تُعاني من صراعات إيديولوجية داخلها من دون أن يؤدي ذلك إلى تفككها وزوالها. **ولا بد أن تسعف التمزق الداخلي عوامل خارجية تؤدي إلى تفجره.**

٣ - ٤ - ولسوء الطالع، وُجِدَت إسرائيل واستمرت وقد تستمر بفضل العون الخارجي، وعلى رأسه العون الإمبريالي الغربي، بوجهيه: العون الاقتصادي والمالي، والعون العسكري. ومن غير المتوقع أن تتغيّر أطراف هذه المعادلة عما قريب.

٣ - ٥ - ومن هنا، فإن العامل الخارجي الأساسي الذي يستطيع أن يوصل التمزق الإسرائيلي إلى نهايته، نعني الانفجار، يظل هو العامل العربي، نعني: **إحكام الطوق على إسرائيل**، في شتى المجالات، وعلى رأسها المجال الاقتصادي، وتعبئة الموارد والإمكانات العربية تعبئة كاملة من أجل ذلك.

٣ - ٦ - ومن أهم أدوات التعبئة العربية في مقاومة الصلف الصهيوني الذي لا يزال مسيطراً، **عقد حوار متصل مع الدول الغربية**، ولا سيما أوروبا، انطلاقاً من الآراء التي ذاعت في إسرائيل - والتي أذاعها تيار «ما بعد الصهيونية»، وتيار «المؤرخين الجدد» بوجه خاص - حول ما اقترفته الصهيونية من آثام ضد العرب، وحول التزييف الذي قامت به للحقائق. ومن حُسن الطالع أن هذه الأفكار الجديدة لقيت وتلقى اهتماماً كبيراً ورواجاً واسعاً في الأوساط الغربية. ومن هنا، فالحوار حولها مع الغرب، ينبغي أن يكون جزءاً من الجهود الدبلوماسية والسياسية والثقافية التي يخاطب بها العرب المجتمع الغربي.

٣ - ٧ - وينجم عن هذا كله أن مفاوضات السلام بين العرب وإسرائيل، ينبغي أن تنطلق من حقيقة واحدة وهي: **تخلي إسرائيل عن منطلقاتها الصهيونية**، ولا سيما فيما يتصل بالأراضي المحتلة وفيما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني كاملة، وعزمها على أن

تكون دولة كسائرالدول الديموقراطية في العالم، لا أكثر ولا أقل.

وأسوأ ما يمكن أن تُمنى به مفاوضات السلام أن يقبل العرب ـ بضغط من الولايات المتحدة أو سواها ـ بأن يسهِّلوا مهمة إسرائيل ويسعفوها تجاه ما تتعرض له من صراعات داخلية، وذلك عن طريق تقديم تنازلات تُوصف بأنها لا بد منها. **ومن سخرية الدهر أن تُطلب التضحية من الضحية، بدلاً من أن تُطلب من الغاصب والجلاد.**

تلك هي أهم الدروس التي يُمكن استخلاصها من الكتاب الذي بين أيدينا. إنها دروس تكشف لنا عن الزيف الذي مارسته وتمارسه القومية الصهيونية، كما تبيّن لنا أن هذا الزيف غدا مفضوحاً لدى الكثير من الإسرائيليين ولدى الكثير من المفكّرين الغربيين من يهود وغير يهود، وأن القضاء عليه هو وحده السبيل الجَدَد من أجل معالجة مشكلة الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وعلى رأس ما تهدينا إليه هذه الدراسة أن إزالة الزيف وإزالة آثار الجريمة هما الطريقان الوحيدان للوصول إلى سلام حقيقي وباق، وأن في ذلك إنقاذاً لإسرائيل وإنقاذاً للعرب من الضياع في متاهة المحادثات الملتوية التي لا يحكمها ضابط.

ونوجز في الختام ما نريد أن نخلص إليه في هذا الكتاب في عبارة واحدة:

إن حرص العرب على انتزاع حقهم كاملاً غير منقوص من براثن الصهيونية، والعمل على بلوغه بسعيهم وتضامنهم وكدهم المشترك في شتى الميادين، وإصرارهم على ذلك إصراراً لا يقبل اللين، هي المواقف التي من شأنها أن تنقذ إسرائيل وأن تنقذ العرب في آن واحد.

دمشق وباريس، **عبد الله عبد الدائم**

أيلول / سبتمبر ١٩٩٩

مدخل

نقول منذ البداية ـ دفعاً لأي لبس ـ إن صراع الصهيونية مع اليهودية ـ على نحو ما نعنيه ـ لا يقتصر على صراعها مع الديانة اليهودية، بل يشمل الصراع بين الصهيونية والوجود اليهودي بكامله، نعني: الشعب اليهودي جملةً على اختلاف منازعه.

فالصهيونية إيديولوجية سياسية هزّت الشعب اليهودي بأسره، وتصدى لها منذ البداية الوجود اليهودي في الشتات بقواه المختلفة، ثم في إسرائيل بعد ولادتها. ولا نغلو إذا قلنا إنها قسرت الوجود اليهودي قسراً ودخلته عنوة وإغواء وزيفاً، وحاولت صناعته وصياغته على غرارها، بوسائل مختلفة سوف نتحدث عنها مطولاً في كتابنا هذا.

فلقد كان الهدف المعلن للإيديولوجية الصهيونية ـ كما نعلم ـ توفير إطار قومي للشعب اليهودي المشتت. **ولكن الشعب اليهودي في كثرته الكاثرة آنذاك كان قد تجاوز إلى حد بعيد** ـ كما سنرى ـ **مرحلة الشعور بالغربة حيث كان يقيم، وكان قد أخذ يحقق الإندماج التدريجي داخل معظم البلدان التي كان يقطنها.** يُضاف إلى هذا، أن معظم المذاهب الدينية اليهودية كانت معادية آنذاك للعودة إلى فلسطين، «أرض إسرائيل» المزعومة التي كانت تعمل لها الصهيونية منذ المؤتمر الصهيوني الأول في بال في ٢٩ آب / أغسطس ١٨٩٧ بل قبله. بل إن الكثيرين من أنصار المبادىء الصهيونية أنفسهم قد أنكروا على الصهيونية دعوتها إلى العودة إلى الأرض المقدسة لأسباب سنتوقف عندها. وفوق هذا وذاك، فإن قيام دولة إسرائيل تحقيقاً للدعوة وللنبوءة الصهيونية، قد وضع الصهيونية موضع الاختبار العملي، وطرح صراعات داخل إسرائيل بين التيارات الدينية المتنافرة، وبين هذه التيارات والتيارات العلمانية، وبين أبناء الأصول العرقية المتباينة، وبين اليهود والعرب داخل إسرائيل، وبين الأجيال التي تعاقبت على أرض فلسطين وعلى رأسها جيل «الصبّاريم» (جيل الآباء الذي ولِد في فلسطين قبل ولادة الدولة) وبين الجيل الجديد الذي ولد بعد ذلك، . . . إلخ.

وفوق هذا وذاك، بل قبل هذا وذاك، أثار العنف الحاقد الذي مارسته الصهيونية ضد العرب من أجل توليد الكيان الإسرائيلي، ثم حروب إسرائيل المتعاقبة مع العرب، وحربها مع لبنان بعد ذلك، ومحاولات قمع الانتفاضة الفلسطينية، والممارسات القمعية النازية التي لجأت إليها الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين والعرب، مشكلات جذرية حول طبيعة الدولة

ومستقبلها، طرحت على بساط البحث من جديد في إسرائيل والعالم أهداف الصهيونية وطبيعتها العدوانية وهوية الدولة الصهيونية. وقد بلغ الأمر بكثير من اليهود، أمام هذه الجرائم الإنسانية، أن وصفوا الصهيونية، لا سيما بعد حرب لبنان، بأنها نازية جديدة كما فعل ليبوفتش، فيلسوف إسرائيل الشهير. وزاد في أوار هذا الصراع، ما تمّ عبر تقدّم المعلومات التاريخية مع الزمن ـ ولا سيما بعد فتح جانبٍ من الأرشيف الإسرائيلي منذ النصف الثاني من الثمانينيات ـ من كشفٍ عن حقائق كانت خافية عن معظم الإسرائيليين ـ بعد أن زيّفها التاريخ الصهيوني الرسمي ـ حول وسائل العنف والاضطهاد والتزييف التي مارسها الصهاينة من أجل إقامة الدولة في فلسطين ومن أجل تهجير أبنائها.

وسوف نتريّث عند هذه الأمور كلها واحداً بعد واحد في سياق كتابنا. وحسبنا أن نؤكّد منذ الآن أن هدفنا الأساسي هو أن نبيّن ـ من خلال البحث التاريخي العلمي ـ أن أصول الصهيونية أصولٌ لا علاقة لها ـ في حقيقة الأمر ـ باليهودية وحاجاتها الواقعية، وأن الإيديولوجية الصهيونية أسطورة أراد «صانعوها» ومزيّفوها من خلالها أن يُنشئوا «دولة سياسية» قومية واستعمارية انطلاقاً من نزعتين كانتا سائدتين عصرذاك هما: **النزعة القومية العدوانية التي كانت سائدة في أوروبا في القرن التاسع عشر، والنزعة الاستعمارية التي رافقت القومية وغذّتها واغتذت بها.** ونحن نعلم كيف أن روّاد الصهيونية (وعلى رأسهم هرتزل ثم بن غوريون) كانوا ملحدين، سوى أنهم استخدموا اليهودية وزيّفوا تاريخها ومبادئها وفسّروها أسوأ تفسير، ليتخذوا منها قناعاً لأهدافهم الحقيقية.

لننتقل الآن مطمئنين، إذن، إلى الحديث عن جوانب الصراع المختلفة بين الصهيونية وبين اليهودية، متريثين كما ذكرنا عند الأمور الآتية:

ـ صراعها مع يهود الشتات؛

ـ صراعها مع الكثير من مفكّري اليهود من صهيونيين أو سواهم؛

ـ صراعها مع معظم المذاهب الدينية، التقليدية منها أو الإصلاحية أو الأرثوذكسية؛

ـ صراعها مع التيارات العلمانية، ولا سيما الحديثة، وبوجه خاص تلك التي يمثّلها «المؤرّخون الجدد» في إسرائيل والتي يُمثّلها تيار «ما بعد الصهيونية».

الفصل الأول

القومية الصهيونية والشتات اليهودي

من الآراء الشائعة أن الصهيونية أرادت أن تخلّص يهود الشتات مما كانوا يقاسونه من اضطهاد في بلدان أوروبا ولا سيما الشرقية، وما كان يشيع في المجتمعات الغربية من نزعات ضد السامية كارهة لليهود.

أمام هذا الرأي الشائع، نودّ أن نقدم بعض الحقائق:

١ ـ إن جانباً كبيراً من العداء للسامية ـ الذي كان ذائعاً في أوروبا حتى عصر التنوير ـ كان يرجع إلى سلوك اليهود أنفسهم، وإلى تعاونهم وتآمرهم مع أصحاب السلطة دوماً، من ملوك ونبلاء، في مواجهة عامة أبناء الشعب[١]. فضلاً عما كان يتصف به يهود الشتات غالباً من روح الكسب والجشع، تلك الروح التي تحدّث عنها كارل ماركس نفسه، وما ساد المجتمعات اليهودية خلال قرون طويلة من نزعات التعصب الديني المغلق والعصبية ضد «الأغيار» (الغوييم Goyim)، وكره المسيحية والكيد لها، والتفكير المظلم المتخلّف (على نحو ما صاغته بشكل خاص القوانين التلمودية).

٢ ـ غير أن يهود الشتات كانوا قد تجاوزوا إلى حد كبير ـ عند بزوغ الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر ـ مرحلة العداء للمجتمعات التي كانوا يعيشون فيها وبالتالي مرحلة عداء تلك المجتمعات لهم، ولا سيما بعد أن تمّ تحرير اليهود في كثير من بلدان الغرب، بعد عصر التنوير اليهودي (الهاسكالا Haskala) الذي بزغ في ألمانيا والنمسا حوالى عام ١٧٨٠. وقد تم هذا التحرير بشكل واضح في النمسا منذ عام ١٨٦٧، وفي ألمانيا على نحو تدريجي ولا سيما بعد القانون الذي أصدره بسمارك عام ١٨٧١، وفي روسيا ورومانيا بعد ذلك، وفي فرنسا منذ تباشير الثورة الفرنسية وفي عهد نابليون بوجه خاص.

ولكن الصهاينة تجاهلوا هذا التطوّر وما تمّ ويتمّ من توفير المساواة الكاملة لليهود مع سائر المواطنين في معظم البلدان الأوروبية، فضلاً عن الولايات المتحدة الأمريكية، وعادوا إلى نقطة الصفر، نعني إلى عهود اليهود الكلاسيكية، وإلى التأكيد على أن «الأغيار» سوف يكرهون اليهود وسوف يضطهدونهم دوماً.. الأمر الذي يخدم موقفهم المبدئي، نعني:

المناداة بعودة اليهود و«تجميعهم» في فلسطين أو أوغندا أو سواهما من الأمكنة التي بحث الصهاينة في أمر جعلها وطناً لليهود (مثل مدغشقر، وليبيا، والأرجنتين، وما بين النهرين، وأوستراليا، وأنغولا، وقبرص، وسيناء). وهكذا كانت الصهيونية منذ البداية متعاونة مع نزعات العداء للسامية ومعادية لها في آن واحد، وكانت هذه النزعات المتكأ الذي اصطنعته من أجل تحقيق مآربها. وبذلك اندمجت ـ على الرغم من نزعتها اللادينية ـ مع الأحقاد اليهودية التاريخية القديمة ضد الأغيار، وما لبثت حتى بدت وكأنها نكوص وتكرار لدور اليهودية التقليدية.

٣ ـ ولا أدلّ على البون بين مواقف الصهيونية ومواقف الشتات اليهودي، من مقاومة هذا الشتات ولا سيما في ألمانيا وإلى حد كبير في فرنسا، للنزعة الصهيونية الوليدة. ومن الأمثلة البارزة على ذلك رفض المجتمع اليهودي الألماني برمته رفضاً قاطعاً عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة ميونيخ، كما كانت رغبة هرتزل في البداية. وهكذا اضطر بعد جدال طويل إلى عقده في مدينة بال بسويسرا. وقد أكد القادة اليهود من الألمان آنذاك رفضهم ورفض الديانة اليهودية للقومية، ورأوا في هذه الفكرة فخاً ينبغي اجتناب الوقوع فيه[٢]. كما أكد أحد زعمائهم وكتّابهم، وهو موريس غودمان Moritz Gudemann، أن الصهيونية «حركة سياسة محضة»، وأن لليهود في ألمانيا وطنهم Vaterland الذي يعيشون فيه كمواطنين، وإنْ لم يكن لهم وطن أم Mutterland. وما حدث في ألمانيا حدث مثله في فرنسا وفي بلدان أوروبية أخرى[*]. وبعد أن أسس أتباع هرتزل جريدة صهيونية في ألمانيا في حزيران / يونيو ١٨٩٧ أطلقوا عليها اسم **العالم** *Die Welt*، أصدر المكتب التنفيذي لرجال الدين اليهود في ألمانيا قراراً حاسماً ضد الصهيونية (في السادس من تموز / يوليو ١٨٩٧)، واعتبرها مناقضة للوعود «المسيحانية» التوراتية.

٤ ـ ومثل هذه المعارضة للصهيونية من قبل أبناء الشعب اليهودي نجدها في فرنسا. فيهود فرنسا المتشبّعون بأفكار الثورة الفرنسية والفخورون بتحررهم وبالحفاظ على صورتهم الحسنة لدى سائر الفرنسيين، أقلقتهم الحركة الصهيونية التي تهدف في خاتمة المطاف إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين. ولئن لقيت الصهيونية قبولاً في بريطانيا، فذلك لأسباب معروفة، من بينها سيطرة بعض النزعات البروتستانتية البريطانية التي رأت (وفق تعاليم **العهد القديم** الذي هو مرجعها الأول) أن عودة اليهود إلى فلسطين مقدمة لازمة لظهور المسيح. يُضاف إلى ذلك عاملان آخران:

أولهما: رغبة الشعب الإنكليزي في التخلّص من هجرة اليهود إلى بريطانيا ومن

(*) خصّص هرتزل الجزء الأكبر من المجلد الأول من مذكراته (يومياته) ـ والذي يغطي الفترة من عام ١٨٩٥ إلى عام ١٨٩٦، للردّ على تصريحات الحاخامات الكبار في ذلك الوقت.

منافستهم الاقتصادية له (**وهكذا يلتقي عداء السامية مع تأييد الصهيونية**).

وثانيهما: الأهداف الاستعمارية البريطانية من أجل السيطرة على قناة السويس والطريق المؤدية إلى الهند.

٥ ـ وحتى في دول أوروبا الشرقية التي عانى فيها اليهود الكثير من الاضطهاد، **واجهت الصهيونية تيارين شعبيين هامين معاديين لها**:

الأول: هو التيار الأرثوذكسي الديني الذي رفض الادعاءات السياسية لحركة هرتزل.

والثاني: هو التيار الاشتراكي اليهودي الذي كان يمثّله حزب البوند Bund (أي الاتحاد العام للعمال اليهود في لتوانيا وبولونيا وروسيا، وهو حزب تمّ تأسيسه في عام ١٨٩٧ للنضال من أجل إقامة قومية علمانية تضمن الاستقلال الشخصي لليهود في أوروبا الشرقية).

٦ ـ ولا أدلّ على موقف الشتات المعادي في معظمه للصهيونية، من **موقف كبار يهود العالم**، من أمثال آينشتين Einstein، ومارتن بوبر Martin Buber، ويهوذا ماغنس Judah Magnès، مؤسس «الجامعة العبرية في القدس»، وسواهم كثير. فمما قاله آينشتين: «إن وعيي العميق للطبيعة الأساسية لليهودية يصطدم مع الفكرة القائلة بدولة يهودية لها حدودها، ولها جيشها، ولها كيانها المادي الدنيوي مهما يكن متواضعاً. وأخشى ما أخشاه الآثار الداخلية المخرّبة التي ستصيب اليهودية بسبب نمو النزعة القومية الضيقة داخل صفوفنا». ومما قاله ماغنس، الذي كان رئيساً للجامعة العبرية في القدس منذ عام ١٩٢٦، في خطاب افتتاح العام الجامعي ١٩٤٦: «إن صوت اليهود الجديد ينطلق اليوم من أفواه المدافع.. تلك هي التوراة الجديدة لأرض إسرائيل. لقد خضع العالم لجنون القوة المادية. حمانا الله من أن نقحم اليهودية وشعب إسرائيل في سَوْرَةِ الجنون هذه».

٧ ـ ويشهد كذلك على هذا الفراق بين شطر كبير من يهود الشتات وبين القومية الصهيونية، ما كان سائداً لدى يهود الولايات المتحدة الأميركية أنفسهم عشية انتهاء الحرب العالمية الأولى من مقاومة للصهيونية السياسية، ومن اعتقاد بأن هذه الصهيونية من شأنها أن تعزل اليهود عن المجتمعات التي يعيشون فيها. ومن هنا بادر ثلاثون شخصية في الولايات المتحدة إلى إصدار بيان بهذا الصدد قبل توقيع مؤتمر السلام عام ١٩١٨، جاء فيه: «في الوقت الذي تطرح فيه مسألة نظام الحكم المستقبلي في فلسطين أمام مؤتمر السلام المقبل، نعلن بصوت واحد ـ نحن الموقعين أدناه ـ معارضتنا لمشروع إنشاء دولة يهودية في فلسطين على نحو ما تقترح المنظمات الصهيونية هنا وفي أوروبا، كما أننا نعترض على عزل اليهود عن مجتمعاتهم وتميّزهم ككيانات قومية في البلدان التي يعيشون فيها». وقد اعتبر هذا البيان آنذاك بمثابة انطلاق لنشاط التيار اليهودي الرافض لقيام دولة إسرائيل.

الفصل الثاني

الصراع داخل الحركة الصهيونية الناشئة

وإذا تركنا جانباً موقف يهود الشتات المعادي للإيديولوجية الصهيونية في الجملة ـ والحديث عنه يطول ـ نجد طائفة من الأفكار والأيديولوجيات المتضاربة التي سبقت أو رافقت أو أعقبت ظهور الإيديولوجية الصهيونية، على نحو ما طرحها هرتزل ولا سيما في كتابه **دولة اليهود** *Der Juden Staat* الذي ظهر عام ١٨٩٦، ثم في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بال في آب / أغسطس ١٨٩٧.

والحديث عن الأفكار والإيديولوجيات المباينة أو المخالفة أو المناقضة لصهيونية هرتزل يحتاج إلى سفر كامل بل إلى أسفار. وحسبنا أن نشير إلى أبرزها في إطار ما نهدف إليه من بيان التناقضات التي رافقت ولادة الإيديولوجية الصهيونية:

١ ـ هنالك **الاتحاد الصهيوني الاشتراكي** الذي يمثله نحمان سيركين Nahman Syrkin صاحب كتاب **المسألة اليهودية ودولة اليهود الاشتراكية**، وفيه يحارب مفهوم الدولة القومية على نحو ما يراه هرتزل. ومن أعلام هذا الاتجاه بير بوروخوف Ber Borokhov (١٨٨١ ـ ١٩١٧) الذي يدافع عن النظرية المادية في بناء الدولة، والذي يرى أن المسألة اليهودية ينبغي أن يتمّ حلها عن طريق قوانين الاقتصاد، وليس عن طريق العمل السياسي.

٢ ـ وهنالك جماعة «أحباء صهيون» Hovevei Tzion التي ظهرت بعد الاضطهاد الشهير الذي أصاب يهود روسيا في عام ١٨٨٥، والتي امتدت إلى بلدان كثيرة خارج الامبراطورية الروسية، والتي عملت من أجل تعزيز الوجود اليهودي في فلسطين، مع رفض فكرة إنشاء دولة يهودية. وقد كان رئيسها حتى عام ١٨٨٩ المفكّر ليو بنسكر Leo Pinsker (١٨٢١ ـ ١٨٩١) وهو طبيب من أوديسا.

٣ ـ وهنالك **التيار الذي تمثله التيارات الدينية المختلفة**، وهو تيار ذو شعب عديدة،

أخذ ألواناً متباينة وأحياناً متناقضة، ولا يزال مستمراً في التوالد والتكاثر حتى اليوم. ومنه من وقف من الصهيونية منذ البداية موقفاً موفَّقاً. ومعظمه، ولا سيما التيار الديني الإصلاحي، رفض الصهيونية. وأبرز تياراته التي رفضت الصهيونية التيار «الحسيدي» (السلفي المغالي)، والتيارات «المسيحانية» التي تعتبر العودة إلى فلسطين قبل ظهور الدلائل الإلهية كفراً وهرطقة. كذلك من التيارات المعادية للصهيونية عند ظهورها «التيار الديني الحديث» الذي يرى في الصهيونية «إبليس الوطن اليهودي» ويؤكد أنها تمثّل «إنكاراً واضحاً لليهودية». وقد وقف بعض أتباع هذا التيار، وعلى رأسهم سامسون هيرش Samson Hirsch، موقفاً حازماً ضد إقامة دولة في فلسطين. وسنرى تفصيل ذلك بعد قليل.

٤ ـ وثمة حركة من طراز خاص، خالفت المقولات الصهيونية أيضاً، وكان لها شأن متميّز بين الأربعينيات والخمسينيات، ونعني بها **الحركة الكنعانية**. وهذه التسمية التي اشتهرت بها كان قد أطلقها عليها، من باب السخرية، الشاعر العبري أبراهام شلونسكي (١٩٠٠ ـ ١٩٧٣) استناداً إلى الفقرة الواردة في سفر التكوين: «فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته» (**التكوين**، ٩:٥٢)[٣]. أما اسمها الحقيقي فهو «حركة العبريين الشبان» (تأسياً بحركة «الأتراك الشبان» بزعامة أتاتورك). وعلى الرغم من أن عدد أتباعها كان محدوداً، فإن شأنها وأثرها كانا كبيرين. وقد ظهرت لدى «الصبار الأوائل» (الشباب المولود في فلسطين). وأهم منطلقاتها «أن الحياة الدينية والأخلاقية على نحو ما تبلورت في اليهودية على امتداد ٢٥٠٠ عام، ليس فيها ما يُلزم. ومثلها، في نظرهم، الحركة القومية التي شاعت منذ قيام الصهيونية. فالصهيونية والدين اليهودي قد نبعا من أساس مشترك، وهو أن اليهود يشكّلون شعباً، والأمر ليس كذلك في نظر العبريين الشبان. وعندهم أن واقعاً إسرائيلياً جديداً، لا علاقة له بالواقع اليهودي في الشتات، قد وُلد على أرض فلسطين. ومن هنا شنَّت هذه المجموعة هجوماً نقدياً على «يهودية» الشتات، وعلى دين إسرائيل ومؤسّساته وقيمه، وعلى نهج التاريخ اليهودي برمته. ودعت ـ في زعمها ـ إلى «خلق أمة موحدة في أرض العبريين على نهر الفرات» من خلال «الدمج المتقدم للجماعات العرقية المحلية» (العرب والأكراد واليهود). ومن الجدير بالذكر أن وجهة النظر هذه هي التي وجّهت زعماء حركة «لِحِي» في ذروة حربها ضد البريطانيين في فلسطين عام ١٩٤٦، حين أصدرت كُتيباً عنوانه **أسس السياسة العبرية الخارجية** بيّنت فيه أن هدف نضالها هو إقامة إتحاد فيدرالي لدول الشرق الأوسط. وقد أثار هذه الفكرة ـ كما نعلم ـ الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان خلال محادثاته مع الملك فيصل، وكذلك بن غوريون في حواره مع زعماء عرب الثلاثينيات. ولعل مشروع شيمون بيريس عام ١٩٩٥ لإقامة مشروع شرق أوسطي جديد غير بعيد عن تلك الأفكار. وقد أسدل الستار على هذه الحركة الكنعانية خلال الخمسينيات وتشرذم اتباعها أو من تبقى منهم على قيد الحياة بين تائب عن أفكار الحركة،

وبين مؤيد ومساند لحركة «غوش إيمونيم» المتطرفة.

٥ ـ وإلى جانب الحركة الكنعانية، ظهرت الحركة «الصبارية» أو «العبرية»، وهي الحركة التي ولدت مع طلائع ما يُعرف في تاريخ الاستيطان الصهيوني بالهجرة الثانية (عليا شنا) خلال الأعوام ١٩٠٤ ـ ١٩١٤، والتي استمرت بعد ذلك، ولمع نجمها ما بين عام ١٩٤٠ وعام ١٩٥٠، وكانت من المراحل الحاسمة في تاريخ هذا الاستيطان. وقد أتى معظم رجالها من روسيا بعد الأحداث التي جرت فيها عام ١٩٠٣ وعام ١٩٠٤، وبعد فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥. وكان معظمهم من أعضاء الحركات الصهيونية الاشتراكية. وقد ابتدعوا في فلسطين فكرة «الكيبوتز» وأسسوا الأحزاب العمالية وطبّقوا في فلسطين على الصهيونية مبادىء العلمانيين من الراديكاليين الاشتراكيين الروس. وكانوا مناهضين للدين ـ أكثر من هرتزل ـ ونادوا بفصل الدين عن الدولة، ونظروا إلى التوراة نظرتهم إلى مجرد وثيقة تاريخية.

ومن خلال هذا المناخ الذي ساد خلال الهجرتين الثانية والثالثة، نشأ جيل من الأبناء الذين ولدوا في فلسطين، اعتبر نفسه فلسطينياً في كل شيء، ولا علاقة له بالماضي اليهودي في الشتات، وعلاقته بفلسطين علاقة قوامها الأرض والمكان وليس التاريخ. وقد عُرف هذا الجيل باسم جيل «الصباريم» (وهي جمع لكلمة «صبار» التي تعني «التين الشوكي» كما نعلم). وقد اعتبر هؤلاء «الصباريم» أنهم يشكّلون بداية جديدة لا علاقة لها بالماضي اليهودي الديني أو الثقافي التاريخي. ورفضوا الثقافة الشتاتية بكل أشكالها، الأمر الذي يتعارض تعارضاً واضحاً مع الموقف الصهيوني الذي حافظ على الروابط مع الشتات اليهودي. وقد سلّم «الصباريم» بهجرة يهود الشتات إلى دولتهم الصغيرة، ولكنهم ظلوا يميّزون بين المهاجرين من البلدان المختلفة وفقاً لمدى تقبلهم للقيم الصبارية.

وما لبثت هذه الحركة بدورها أن سقطت، كما سقطت من قبلها الحركة الكنعانية، وتداعى الصبار العلماني، وظهر مكانه بعد ذلك ما يُمكن أن نطلق عليه اسم «الصبار الديني»، نعني رجل «غوش إيمونيم» (كتلة الإيمان)، وهو المستوطن المسيحاني ـ السياسي الذي يتبنى الأسطورة المطالبة بأرض إسرائيل الكاملة. وقد ظهرت هذه الحركة كما نعلم في أعقاب حرب عام ١٩٦٧، ولها دور شبه حاسم في توجيه الأحداث في إسرائيل اليوم.

٦ ـ وأهمّ من هذا وذاك أن **كثيراً من كبار مفكّري الصهيونية نفسها كانوا ضد الصهيونية على نحو ما صاغها هرتزل وصحبه**. وحسبنا أن نذكر ثلاثة من هؤلاء هم: ليو بنسكر Leo Pinsker (١٨٢١ ـ ١٨٩١)، وآحاد هاعام Ahad Ha-Am (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧)، وفلاديمير زئيف جابوتنسكي Vladimir Zeev Jabotinsky (١٨٨٠ ـ ١٩٤٠). وليس المجال مجال التفصيل في آراء هؤلاء، فمثل هذا العمل يستغرق الصفحات الطوال. وحسبنا أن نشير إشارة خاطفة إلى نقاط الخلاف الأساسية بين صهيونيتهم وصهيونية هرتزل.

٦ ـ ١ ـ أما ليو بنسكر، الطبيب المولود في أوديسا، فيكاد يجسّد سائر التناقضات والصراعات التي شهدتها فترة نشوء الصهيونية. وأهم ما يعنينا من فكره أنه كان معادياً لفكرة إقامة وطن يهودي في فلسطين، مؤيداً لإقامته في أي بقعة أخرى. واستبعاده هذا لإقامة الوطن اليهودي في فلسطين يكشف عن نظرة واقعية ومستقبلية ثاقبة. ذلك أن الترابط ـ كما يقول ـ بين «أرض إسرائيل» وبين ما هو ديني مقدس ترابطٌ وثيقٌ جداً إلى حد **يجعل من المستحيل إقامة دولة يهودية ضمن إطار سياسي محض**. ويمضي من أجل هذا إلى أعماق التاريخ اليهودي فيقول: «إن سقوط مملكة داوود ومن جاء بعده يرجع إلى الخلط المستمر بين السلطة السياسية (ممثّلة بالملك والقضاة) وبين السلطة الدينية (ممثّلة بالحكماء وبالأنبياء)، وهو خلط لا يُمكن اجتنابه لأنه نابع من الوضع الخاص المتميّز لأرض إسرائيل. ولهذا، فمن أجل بناء وطن قومي ثابت الأركان، من اللازم اجتناب مثل هذا الوهم المشؤوم، وهم إعادة بناء دولة «يهوذا القديمة»، حيث تحطمت تلك الدولة وتقطعت بها السبل.

٦ ـ ٢ ـ أما **آحاد هاعام**، أبرز مفكّري الصهيونية، فيرى أن صهيونية مؤتمر بال لن تعدو أن تكون مغامرة فاشلة، إذا هي اكتفت بإنشاء إطار سياسي صوري وشكلي يجمع اليهود الألمان أو الفرنسيين أو سواهم، في حين أن المهمة الحقيقية المطلوبة إنشاء دولة يهودية Medinat yehoudit وليس إنشاء دولة مبتذلة لليهود Medinat yehoudim على نحو ما يريد هرتزل. لا سيما أن هرتزل قد رفض منذ البداية أن يكون للديانة اليهودية أي شأن في دولته الموعودة. الأمر الذي انتقده آحاد هاعام نقداً مرّاً حين رأى في مثل هذه الدولة الخلوة من أي لحن ديني صريح، مجرد تقليد للغرب وخضوع لنظرته. وقد تجلّى هذا النقد اللاذع بوجه خاص في نقد آحاد هاعام للقصة السياسية الخيالية التي كتبها هرتزل عام ١٩٠٢ (وعنوانها: **الأرض القديمة الجديدة** *Altneuland*) والتي أرادها أن تكون بمثابة إرهاص بالدولة الصهيونية المقبلة.

وقد أطلق على الاتجاه الذي نادى به آحاد هاعام اسم «الصهيونية الثقافية»[٤]. وجوهر هذا الاتجاه القول بأن الصهيونية حلّ لمشكلة الديانة اليهودية، وليست حلاً لمشكلة الشعب اليهودي. ومنذ المؤتمر الصهيوني الأول في بال بسويسرا عام ١٨٩٧، كان هذا الاتجاه الثقافي هو الاتجاه المعارض لصهيونة هرتزل السياسية. وقد جاء معظم مناصريه من دول أوروبا الشرقية، وكانوا يُعارضون استيعاب اليهود في تلك الدول. ومع بداية هجرة اليهود من أوروبا الشرقية، أخذ دعاة الصهيونية الثقافية يؤيدون إنشاء مستعمرات عبرية في فلسطين بغرض إحياء اللغة العبرية والثقافة العبرية وخلق «أمة» عبرية جديدة. وكانوا يؤمنون بأن هذا الهدف ينبغي أن تكون له الأولوية على فكرة إنشاء «دولة يهودية». ومن هنا، فإن مهمة أصحاب هذا الاتجاه الأساسية كانت إقامة «مركز ثقافي»، على عكس جماعة هرتزل

التي كانت تطالب بحق اليهود في فلسطين كلها وبطرد السكان العرب منها.

وقد ولد زعيم «الصهيونية الثقافية» آحاد هاعام في كييف بأوكرانيا عام ١٨٥٦ من أسرة ثرية متدينة. وقضى طفولته وشبابه في دراسة التوراة والتلمود وسائر المصادر الدينية اليهودية. ثم غدا أحد قادة حركة «أحباء صهيون» المارّ ذكرها. وفي أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، وبعد استقالة بنسكر من الحركة الوطنية اليهودية، أصبح آحاد هاعام الشخصية الرئيسية في الحركة حتى تولى هرتزل زعامتها عام ١٨٩٧، وكان الزعيم الوحيد بين أتباع حركة «أحبّاء صهيون» الذي رفض قيادة هرتزل للحركة الصهيونية، بسبب الاختلاف الواضح بين موقف الرجلين. إذ كان هرتزل يؤمن بأن «السعي إلى إقامة دولة قوية ذات سيادة هو الهدف الوحيد للصهيونية»، وبأن التنافس الثقافي خلال أي مرحلة يُمكن أن يؤدي إلى شقاق بين الصهيونيين المتمسكين بالمذهب اليهودي الأرثوذكسي وبين العلمانيين، وأن يلحق الأذى بالتالي بالوحدة السياسية للحركة الصهيونية. وهذه النظرة - في رأي آحاد هاعام - تهدد بقاء الروح اليهودية واستمرارها، ومن شأن هذه الرغبة لدى هرتزل في إنشاء دولة يهودية «تخضع في تنظيمها للنمط السائد في الدول الأخرى» أن تؤدي إلى إذابة الثقافة القومية اليهودية في ثقافات أوروبا الحديثة.

وقد وقف آحاد هاعام موقفاً خاصاً من فلسطين، على الرغم من استيطانه بها منذ عام ١٩٢٢. إذ نأى بنفسه عن التيار الرئيسي للصهيونية، عن طريق تعاطفه مع الحقوق العربية وحملته على الأسلوب الذي يُعامل به المستوطنون اليهود الفلسطينيين. وفي عام ١٨٩١، وفي أعقاب زيارة قام بها إلى فلسطين، كتب في صحيفة **هآرتس** ما يلي: «كما يحدث دائماً عندما ينقل عبدٌ إلى حال التحرر من العبودية، يتبدى لدى اليهود نزوع واضح إلى الاستبداد. فهم يُعاملون العرب معاملة قاسية حاقدة، ويبتزون حقوقهم بأساليب مخادعة، ويهينونهم بلا مسوّغ، ويسلكون سلوكاً متبجحاً».

وبعد ذلك، وحين أثاره ما شهده خلال الأحداث المأساوية بين اليهود والعرب، عبّر عن أسفه قائلاً **«إن اليهود جاءوا إلى فلسطين لتلويث تربتها بسفك الدماء البريئة»**.

ومع استكمال برنامج الصهيونية السياسية، واصل آحاد هاعام الدعوة إلى إقامة حكم يهودي - عربي مشترك في فلسطين، ووقف موقفاً شديد المعارضة لصهيونيي «حزب العمل»، وامتنع عن الإشادة بوعد بلفور، وانتقده قائلاً: «إن إعلان بلفور لن يؤثر على حق السكان الآخرين الذين لهم حق التمسك بإقامتهم في أرض فلسطين. فلعرب فلسطين أيضاً الحق في وطن قومي، والحق في تنمية قواهم الوطنية إلى أقصى حد ممكن..».

وقد نشر آحاد هاعام آراءه في مجلة **هاشيلواح** (الرسول) العبرية الشهرية التي سبق له أن أسّسها في برلين عام ١٨٩٩ وتولى تحريرها عدة سنوات. وفي عام ١٩٢٢ استقر في

فلسطين، حيث توفي بعد خمس سنوات. وقد زادت شكوكه آنذاك في نجاح المشروع الصهيوني في فلسطين بسبب قوة المعارضة العربية. وبعد وفاته ظل رمزاً للصهيونية الثقافية وملهماً داخل الحركة الصهيونية للاتجاه الذي عُرف باتجاه «الثنائية القومية»، ذلك الاتجاه الذي يرى أن فلسطين أرض لشعبين، لكل منهما الحق في تحقيق تطلعاته فوق أرضه. وللوصول إلى هذه الغاية، يرى أصحاب هذا الاتجاه أن على العرب واليهود أن يقيموا علاقة تعاونية فيما بينهم بدلاً من المواجهة القائمة.

وهكذ كانت دعوة آحاد هاعام الثقافية منطلقاً لسائر الحركات التي ظهرت والتي لا تزال قائمة حتى اليوم، نعني الحركات الداعية إلى إنشاء دولة ثنائية القومية في فلسطين. وقد اشتهرت منها جماعة «بريت شالوم» (حلف السلام) منذ العشرينيات، التي خلفتها جماعة «إيحود» (الإتحاد) منذ عام ١٩٤٢، وجماعة «هاشومير هاتسعير» عام ١٩٤٦ (التي كانت من أبرز دعاة «الثنائية القومية» هذه). وقد ورثت هذه الحركات جميعها، بعد أن تلاشت إلى حين إثر إنشاء دولة إسرائيل، الأحزاب الشيوعية الإسرائيلية والفلسطينية (ماكي)، ولا سيما بعد حرب عام ١٩٦٧، وانتقل إرثها بعد ذلك إلى حركة «السلام الآن» خلال العقد الذي أعقب الحرب، ومنذ عام ١٩٧٧ بوجه خاص(٥).

٦ ـ ٣ ـ أما الزعيم الصهيوني الروسي **فلاديمير جابوتنسكي** ابن الصهيونية المخيف، كما يُلقب أحياناً، وزعيم الصهيونية القومية اليمينية المتطرفة، فالحديث عنه وعن أوجه الخلاف واللقاء بينه وبين صهيونية هرتزل حديث ذو شعاب كثيرة، لا مجال للتوقف عندها. وحسبنا أن نقول موجزين إنه كان معادياً لهرتزل في كثير من الأمور من دون أن يقطع صلته بصهيونيته، ولهذا تُوصف صهيونيته بأنها **ضربٌ من مراجعة الصهيونية**. وجوهر هذه المراجعة تأكيد الطابع السياسي للصهيونية، على نحو ما كانت عليه في بدايتها. ومن هنا فلا ضير عنده من أن يؤدي إنشاء الوطن القومي لليهود إلى إهمال قواعد الديموقراطية ومبدأ الإجماع، وإلى التنكّر لحقوق العرب في فلسطين. ولا ضير من إخراج العرب من أرضهم («أرض إسرائيل» في زعمه) بقوة السلاح، ما دامت ثمة صلة عضوية لا تنفصم بين الوجود القومي اليهودي وبين بقعة معينة من الأرض، هي «أرض إسرائيل». لا سيما أن هذه الأرض عنده ليست مجرد امتداد جغرافي يحمل بصمات التاريخ اليهودي، وإنما هي أيضاً وخاصةً مكان مادي من لحم ودم فيه كان يستنشق اليهود أيام التوراة هواء البلد ويغتذون من سنابل قمحه. وعندما يعود يهود اليوم إليه يجدون جذورهم في تربته!

ولسنا في حاجة إلى أن نمضي أكثر من هذا في الحديث عن أفكار جابوتنسكي الفاشية والقومية العرقية، وعن إشادته بصفاء العرق اليهودي، وعن رفضه لصراع الطبقات، وسوى ذلك كثير. فهو، ولا فخر، أبو اليمين القومي الصهيوني المتطرف، ومؤسّس «الفرق العسكرية اليهودية» داخل الجيش البريطاني عام ١٩١٧ من أجل الإسهام في غزو فلسطين.

وهو المؤمن بدور السلاح والقوة في بناء الإنسان اليهودي الجديد، وهو ملهم العصابات التي كوّنها أناس من أمثال مناحيم بيغن واسحاق شامير. وهو الذي يرى أن العنف الخلاق المبدع أساس ولادة الأمم والقوميات، وأن الموت طريق الحياة. وإليه اليوم ينتسب حزب الليكود واليمين المتطرف، وعلى رأسهم بنيامين نتانياهو الذي كان جده لأمه ناتان ميلوبسكي من المقرّبين إلى جابوتنسكي (وقد هاجر إلى فلسطين عام ١٩٢٠).

٦ ـ ٤ ـ **وهناك مسألة الخلاف داخل الحركة الصهيونية عند ولادتها وبعد ولادتها حول أرض الدولة اليهودية**، ولا سيما الخلاف الحادّ بين رفض إقامة دولة يهودية في فلسطين، كما فعل ليو بنسكر أحد أبرز زعماء الصهيونية الأوائل، وكان طبيباً من أوديسا كما ذكرنا (وقد كان رفضه لاختيار فلسطين وطناً لليهود رفضاً قاطعاً جازماً بل محذّراً لأسباب لا مجال لذكرها الآن) وبين المطالبين بإقامة هذه الدولة في فلسطين (بوصفها «أرض الميعاد» كما يدّعون)، وبين من يقبل بأي أرض لهذه الدولة في أي مكان في العالم. ومن المعروف أن هرتزل نفسه لم يكن في البداية (في كتابه **دولة اليهود** مصراً على إنشاء الدولة في فلسطين، وأنه وافق على العرض الذي قدّمه عام ١٩٠٣ وزير المستعمرات البريطاني جوزيف تشامبرلن والمختص بإقطاع أوغندا أرضاً لليهود. وكما ذكرنا سابقاً، لقد استعرض الصهاينة حوالى عشرة أمكنة في العالم جرى التدقيق والبحث في مدى صلاحها لأن تكون دولة لهم.

٦ ـ ٥ ـ **وهنالك مسألة العلاقة بين الصهيونية والاشتراكية**. فقد تبنى الاتجاه الاشتراكي والماركسي أمثال نحمان سيركين وبير بوروخوف، وهما من أبرز رواد الصهيونية، بينما عارضه أهارون غوردون Aharon Gordon (١٨٥٦ ـ ١٩٢٢) وكثيرون آخرون.

٦ ـ ٦ ـ **وهنالك مسألة اللغة**، والخلاف الحادّ الذي ظهر قبل نشأة الصهيونية واشتد بعدها، نعني الخلاف بين الداعين إلى إحياء اللغة العبرية وتجديدها، وبين الذين يؤثرون الإبقاء على لغة «اليديش» Yiddish التي كانت شائعة لدى يهود الشتات. ومن الجدير بالذكر أن هرتزل نفسه كان ضد استخدام اللغة العبرية في الدولة اليهودية الموعودة، وكان يدعو إلى استخدام اللغة الألمانية!

وهكذا نرى في خاتمة هذا الفصل من كتابنا الذي أفردناه لموقف الشتات اليهودي من الصهيونية، أن الصهيونية تجاهلت عن قصد ـ تحقيقاً لأغراضها القومية والسياسية ـ واقع ذلك الشتات عند بزوغها، ذلك الشتات الذي كان يسير في طريق الاندماج الكامل مع البلدان التي كان يعيش فيها، لا سيما بعد أن صدرت في تلك البلدان قوانين وإجراءات عديدة من أجل تحرير اليهود ومعاملتهم على قدم المساواة مع سواهم. وقد أثار موقف الصهيونية هذا صراعات داخل الشتات الذي كان في معظمه مناهضاً لتعاليم الصهيونية.

وهكذا لقيت الصهيونية عنتاً كبيراً لدى يهود العالم، ولا سيما في ألمانيا وفرنسا. أما بريطانيا فهي قمينة ببحث خاص لا يتسع له المجال هنا يبيِّن دورها في توليد الصهيونية ويوضِّح ما كان لفريق البروتستانت فيها من دور أساسي في دفع اليهود ـ رغماً عنهم ـ إلى العودة إلى فلسطين، لأغراض متعددة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أهمها تحقيق ما ورد في **العهد القديم** ـ الذي هو كتاب البروتستانت الأول والمقدَّم حتى على **الإنجيل** ـ من ارتباط عودة المسيح (المسيح اليهودي) بعودة اليهود إلى «أرض الميعاد».

الفصل الثالث

صراع القومية الصهيونية عند نشأتها مع المذاهب الدينية اليهودية

لقد كان طبيعياً، في المرحلة التي نشأت فيها الصهيونية، أن يحتدم الصراع بين القومية والدين. **فالقومية كما أرادتها الصهيونية ظاهرة دنيوية**، ولكنها في حاجة إلى أمرين إذا هي أرادت أن تتجذر: أولهما وجود مجموعة بشرية، وثانيهما توافر مقومات وهوية مشتركة لتلك المجموعة.

وههنا ـ من خلال البحث عن الهوية ـ لا بد أن تلتقي القومية بالدين. غير أن المشكلة، **مشكلة الصلة بين القومية والدين على نحو ما أثارها بزوغ الصهيونية**، تظلّ عويصة. وهنالك على أقل تقدير صيغتان ممكنتان لتلك الصلة، يصعب التلاقي بينهما: الصيغة التي ترى أن القومية ليست مجرد نتاج مشتق من الدين؛ والصيغة التي ترى أن الدين في خاتمة المطاف هو الإطار الذي يستطيع أن يرسم ويحدّد بدقة إطار القومية اليهودية والدولة اليهودية، وأن ما عداه (من أطر ثقافية أو تاريخية أو سواها) يظل مبهماً وغامضاً.

من خلال هذه الثنائية قام الصراع بين القومية الصهيونية والمذاهب الدينية اليهودية. فالصهيونية تكوّنت من خلال ضربٍ من الابتعاد عن التقاليد الدينية اليهودية، بل من خلال قطع الجسور تماماً معها في نظر بعض روادها، على نحو ما نجد مثلاً عند يوسف حاييم برينر Yosef Haiim Brenner أو ميخا بيرديشفكي Micha Berdichevsky، وعلى نحو ما نجد لدى «النيتشويين الصهاينة» (الصهاينة المتأثرين بأفكار نيتشه، الذين يدعون إلى إحداث انقلاب شامل في القيم الدينية، وإلى التخلّي عن اليهودية المجردة الضامرة التي سادت في الشتات). وأياً كانت محاولات التوفيق أو التلفيق التي لجأت إليها القومية الصهيونية، يظل من الصحيح **أن الصهيونية عند نشأتها كانت تمثّل في جوهرها هجراناً للتقاليد وابتعاداً عنها**. وهذا ما نجده من البداية عند هرتزل، مؤسس الصهيونية، وعند بن غوريون، مؤسس دولة إسرائيل، وسواهما من كبار القادة الصهيونيين، وإنْ لجأ هؤلاء وسواهم عبر مسيرة الصهيونية ومستلزمات دولة إسرائيل إلى خداع وتمويه سوف

نتحدث عنهما فيما بعد. فالمنطلق الرئيسي لدى الصهاينة هو دوماً اعتبار الدين أداة في خدمة القومية الصهيونية، وقد قام بالرد على هذا الموقف القومي الصهيوني المعادي للدين اليهودي العديد من المفكّرين، ولا يزال الجدال قائماً وعنيفاً حول هذا الأمر حتى اليوم، وما نظنه سيتوقف يوماً.

وفيما يلي نشير إلى أهم المذاهب اليهودية التي عادت الصهيونية ورفضتها.

١ ـ اليهودية الأرثوذكسية (أو الأصولية):

ظهر هذا النعت في قلب اليهودية عام ١٧٩٥، في عصر التنوير اليهودي (الهاسكالا) الذي تم خلاله تحرير اليهود من قبل الدول الغربية. وقد انتشر هذا النعت وذاع وأصبح يعني، بدءاً من القرن التاسع عشر، جملة الطقوس والمعتقدات اليهودية، في مواجهة التطوّر والتجدّد اللذين أخذت بهما الحركة اليهودية الإصلاحية كما سنرى بعد قليل. وقد اُستُحدث هذا النعت ليدل على أولئك الذين ينادون بيهودية أوحاها الله، مصدرها «الشريعة المكتوبة» (أي الكُتُب الخمسة التي أوحيت إلى موسى، وفقاً للمعتقدات اليهودية)، و«الشريعة الشفوية» [أي التفسير الذي قدّمه الأحبار ورجال الدين اليهودي للشريعة المكتوبة على نحو ما تمّ تقنينه في «اللوح المنصوب» (شولمان عاروخ Choulmhan Aroukh) وفي الشروح عليه، أي في الشريعة الدينية (الهالاخاه Halakha) على نحو ما صاغها يوسف كارو Yosef Caro في صفد بين عام ١٥٢٢ وعام ١٥٥٤، والتي وضع الشروح عليها موسى أيسرلس الكاراكوفي Moise Ysserles de Caracovie.

وهكذا انتسب إلى هذه النزعة الأرثوذكسية أولئك الذين كانوا ينادون في أوروبا الوسطى والشرقية بيهودية تقليدية، قوامها تاريخ الشعب اليهودي وديانته، والذين كانوا يناهضون بالتالي النزعات العصرية المحدثة التي أخذت تغزو المجتمع اليهودي، وعلى رأسها نزعة الإصلاح الديني.

فالانحلال التدريجي للمجتمع اليهودي دفع معظم رجال الدين اليهودي في أوروبا الشرقية والوسطى إلى ضربٍ من الانكماش هدفه الإبقاء على أكبر قدر ممكن من مكتسبات الديانة التقليدية، وذلك عن طريق إبعاد المجتمعات اليهودية عن «الهرطقات الحديثة»، التي ولد المذهب الأرثوذكسي لمواجهة الانحرافات ولمعالجة الأسباب والعوامل التي أحدثتها. وقد مثّل هذا المذهب تياراً سائداً ينتسب إليه معظم اليهود في أوروبا الشرقية والوسطى، ثم انتقل بعد ذلك إلى سائر البلدان، وغدا مسيطراً في إسرائيل اليوم.

وأهم ما يعنينا في المذهب الأرثوذكسي أنه كان يدافع عن بقاء الشتات اليهودي حيث هو، **ويرفض أي استعجال «مسيحاني» وأي عودة بالتالي إلى أرض فلسطين قبل أن تظهر**

العلائم الإلهية لظهور المسيح. ومن هنا كان ضد أي محاولة بشرية للتعجيل بنهاية العالم، وضد الصهيونية بشكل حاد وقاطع.

وقد يكون من المفيد أن نذكر بأن النزعة المسيحانية لدى اليهود (وهي نزعة لا تقتصر على المذهب الأرثوذكسي) نزعةٌ بدأت بالتكوُّن منذ بداية زوال «دولة» اليهود التي كانت قائمة حسب زعمهم في فلسطين، أي منذ تهديم «الهيكل الثاني» (عام ٧٠م) ثم الهزيمة الكبرى التي لحقت باليهود في «باركوخبا» Bar Kokhba (عام ١٣٥م). فمنذ ذلك الحين، فيما يروي مؤرِّخو اليهود، ظهر الاعتقاد بمجيء المسيح الذي سوف يُخلِّص بني إسرائيل من المنفى ويعيد إليهم مجدهم التليد. وقد اتخذ هذا الأمل المسيحاني شكل أمل مزدوج: أمل في العودة إلى العصر الذهبي لليهود، وأمل في قيام عالم أفضل مختلف كل الاختلاف عن عالمنا. وهذا الخلاص المسيحاني لن يحدث إلا عند نهاية الزمن. والتعجيل بمعجزة مجيء العصر المسيحاني لا يمكن أن يأتي إلاّ من الله، وما على الإنسان إلا أن يصلّي لله ويحسن عمله أملاً في ألا يتأخر الخلاص. وكل **محاولة للعودة إلى أرض إسرائيل قبل ظهور الإشارات الإلهية كفر وهرطقة وثورة ضد الإله**. وعودة اليهود إلى أرض آبائهم شأنٌ من اختصاص الإله وحده، ولا تتمّ بقرار من بني البشر.

وهكذا نرى أن الصهيونية ـ ولا سيما فيما يتصل بدعوتها إلى العودة إلى فلسطين ـ تمثّل في نظر معظم أنصار التيار الأرثوذكسي التقليدي ـ وهو التيار الغالب لدى اليهود ـ خطراً مداهماً. وتكاد نظرة هذا التيار إلى الصهيونية ترتد في نهاية المطاف إلى ما يأتي: إن الصهيونية، حين تحصر الوجود اليهودي داخل حدود سياسية، تشكّك في الهوية غير المرتبطة بالأرض التي تكوّنت في الشتات. وهي بذلك تمثّل نكوصاً إلى الماضي لا يُمكن قبوله، لأنها تضع اليهود مرة أخرى في مكان مغلق بعد أن توصّلوا إلى تحرير اليهودية من استبداد المكان.

وقد انتقد هذه النزعة الأرثوذكسية خلال الأعوام الممتدة من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٤٠ الحاخام شمشون روفائيل هيرش Samson Raphaël Hirsh (١٨٠٨ ـ ١٨٨٨)، وقاد حملة عنيفة ضدها.

وفي وقت متأخر أدت هذه النزعة إلى تكوين حركة أرثوذكسية جديدة معادية للصهيونية تمثّلها بوجه خاص الحركة المعروفة باسم «أغودات إسرائيل» Agoudat Israël (أي رابطة إسرائيل). وقد أسستها عام ١٩١٢ زعامات تقليدية في ألمانيا ولتوانيا وهنغاريا وبولونيا. ومما يقوله أول رئيس لهذه الحركة، وهو يعقوب روزنهايم Jacob Rosenheim: **إن الصهيونية في مدلولها الحقيقي هي شيطان الشعب اليهودي**، الذي يحاول، في اللحظة الحاسمة التي ينبغي فيها على هذا الشعب أن يثبت جدارته، أن

ينزع عن رأسه تاج الوحدة التاريخية، تاج المسيحانية، وأن يهبط به إلى مستوى دولة سياسية شأنها شأن سائر الدول. ومن هذا النصّ ندرك اللقاء بين الأرثوذكسية الأصولية وهذه الأرثوذكسية الجديدة، فكلتاهما تأخذان على الصهيونية عصيانها أوامر الله، وتهديمها لأقدس أُسس اليهودية.

وتظهر هذه النزعة الأرثوذكسية الجديدة أيضاً بشكل واضح لدى إسحق بروير Isaac Breuer (١٨٨٢ ـ ١٩٤٦)، أحد الوجوه البارزة لهذه النزعة في ألمانيا ثم في فلسطين. فهو يحمل في كتاباته الكثيرة على الاتجاهات السياسية التي تأخذ بها الصهيونية، وهي اتجاهات تبدو له خطيرة وعابثة، لأن اليهودية في نظره كانت دائماً مؤسّسة سياسية قومية، **فللشعب اليهودي حاكم، هو الله، وله دستور هو التوراة**. ومن العبث السعي إلى إقامة دولة في فلسطين، لأن الحكم الديني (الثيوقراطي) هو وحده الإطار الطبيعي لليهود، يخضعون له أنى كانوا. وإله إسرائيل هو إله سائر الأمم، وهو إله السياسة والاقتصاد والتاريخ كله.

٢ ـ اليهودية الإصلاحية (أو المجدِّدة):

على العكس من الأرثوذكسية الأصولية، تنكر النزعة اليهودية الإصلاحية الطابع الثابت للشريعة المكتوبة، وتود أن توائم بين الفكر اليهودي والطقوس اليهودية من جانب، وبين تحديات العصر الحديث من جانب آخر.

وقد أسهم موسى ماندلسون Moïse Mandelson (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦) في خلق المناخ الملائم لولادة هذه النزعة الإصلاحية. إذ كان يرى أن مبادىء اليهودية مبادىء مصدرها العقل، وتتفق بالتالي مع مبادىء عصر التنوير، وتشجع اليهود على الابتعاد عن الفهم التقليدي للدين. ونجد أصول هذه النزعة في ألمانيا بوجه خاص، ومنها ذاعت أصداء الإصلاح الديني في أوروبا كلها، وعرف رواجاً كبيراً بعد ذلك في الولايات المتحدة الأميركية، حيث غدت له مكانة رفيعة، ولا سيما لدى اليهود الذين هاجروا من ألمانيا وأقاموا في شمال الولايات المتحدة. وقد نشأت نتيجة لذلك طائفة دينية شهيرة تنتمي إلى حركة الإصلاح الديني هذه. وفي عام ١٨٤٦ هاجر من بوهيميا الألمانية إلى الولايات المتحدة إسحق ماير وايز Issac Mayer Wise (١٨١٩ ـ ١٩٠٩)، وغدا رائداً من رواد الإصلاح الديني، ونادى بيهودية ملائمة للبيئة الأميركية. وقد حصل على تأييد مؤتمر للحاخامات عقد في مدينة كليفلاند Cleavland الأميركية عام ١٨٥٥، وعلى تأييد الكثير من رجال الدين، وإنْ يكن قد لقي مقاومة عنيفة من بعضهم. واتسعت حركة الإصلاح بعد ذلك وأنتشرت أنتشاراً واسعاً في الولايات المتحدة.

والحديث عن هذه النزعة الإصلاحية يلتهم صفحات كثيرة. ويعنينا منها موقفها من الصهيونية، ولا سيما فيما يتصل بالعودة إلى فلسطين.

فحركة الإصلاح الجذري هذه، إذ تنظر إلى اليهودي نظرتها إلى مجرد مؤمن ينتسب إلى طائفة دينية معينة، كانت ترى في اليهودية معتقداً في حال تطّور مستمر وصل إلى مرحلة متقدمة من الصفاء الأخلاقي. ولهذا، فإن من مهمتها أن تنشر الرسالة الإنسانية، التي تنادي بها اليهودية، في العالم كله. الأمر الذي يفرض عليها أن تتخلى نهائياً عن الوعود والآمال الخاصة بإقامة وطن في فلسطين. **وهكذا وقفت من الصهيونية موقفاً شديد العداء**. وإذا نحن استثنينا أفراداً قلائل فيها، فإن موقفها كان نقيض موقف الصهيونية فكراً وعملاً. ولا أدلّ على ذلك من أن الحاخامات الكبار الذين قادوا الدعوة أصدروا عام ١٨٥٧ كتاب صلوات باللغتين الألمانية والعبرية، أدخلوا فيه تجديدات جذرية، ولم يتركوا فيه أية إشارة إلى «أرض الميعاد» أو إلى إعادة بناء هيكل الدولة اليهودية. بل إن مؤسسي هذه الحركة وهما أبراهام غيغر Abraham Geiger (١٨١٠ ـ ١٨٧٤) وصمويل هولدهايم Samuel Holdheim (١٨٠٦ ـ ١٨٦٠) لم يكتفيا بالتعديلات المتصلة بالطقوس والصلوات، بل تصديا لأسس الشريعة الأخلاقية (الهالاخاه) للدين اليهودي، وذهبا إلى حدّ التشكيك في فائدة استخدام اللغة العبرية. وقد تُوِّجت هذه الحركة الإصلاحية ببرنامج تم التصويت عليه في مدينة بتسبرغ الأميركية عام ١٨٨٥، وكان أهم ما ورد فيه التخلّي النهائي عن أي طموح قومي لليهودية، ورفض التفكير في العودة إلى فلسطين أو إحياء أي قانون ديني مزعوم يدّعو إلى إقامة دولة يهودية. ومما جاء في هذا البرنامج أيضاً الدعوة إلى اندماج اليهود بالبيئة القومية والثقافية للمجتمعات التي يعيشون فيها.

وقد قاوم هذه الدعوة الإصلاحية عدد من المذاهب الدينية الأخرى، وكان من أهم أهداف المذهب الأرثوذكسي الذي تحدثنا عنه اجتناب آثارها التي أخذت في الانتشار داخل المجتمع اليهودي. يضاف إلى هذا أن هذه الحركة خاضت معارك في داخلها أضعفت انطلاقتها الأولى، فضلاً عن أن الحركة العلمانية نفسها قاومتها بعد ذلك.

٣ ـ اليهودية العلمانية الإنسانية:

من نتاج حركة الإصلاح الديني، ظهور نزعة يهودية علمانية، قاومت بدورها النزعة الدينية الأرثوذكسية مقاومة عنيدة، كما تنكرت لكل ما في التعاليم اليهودية الدينية من أساطير لا أساس لها، ومن بينها الأساطير المتصلة بالعودة إلى «أرض الميعاد».

ولقد انطلقت هذه النزعة من مبادىء عصر التنوير الحديث، وولد من خلالها ـ ولا سيما لدى المثقفين اليهود ـ اتجاه مضى بالتجديد حتى نهايته، نعني: إنكار الدين أصلاً. **ويرى أصحاب هذا التيار جملة أن اليهودية حضارة وثقافة للشعب، وليست مجرد مفاهيم دينية خالصة**، وإن الأسس اليهودية المتمحورة حول الدين وُضعت موضع الشك منذ العهود

التاريخية القديمة، على نحو ما يتجلى ذلك مثلاً لدى عليزر بن عفويا Elisée Ben Avouyah (وقد عاش بين عام ٧٠ وعام ١٤٠ للميلاد)، الذي رفض تعاليم الحكماء اليهود وتقاليدهم، وخلص إلى عدم وجود «شريعة وقضاة». وبعد تحرير اليهود في أوروبا ـ كما سبق ورأينا ـ تكاثرت أعداد الذين حافظوا على ارتباطهم بشعبهم وأنكروا في الوقت نفسه الطقوس والتعاليم الدينية التقليدية. وكثير منهم تبنى فلسفة لاأدرية أو ملحدة. وبعضهم اتجه نحو حركات الخلاص الجديدة الجذرية، التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، كالاشتراكية والعرقية وسواهما.

والحديث عن المذاهب والنزعات التي كانت في جوهرها معادية للصهيونية، حديث ذو شعاب تصعب الإحاطة بها. وحسبنا أننا بيّنا ـ بإيجاز مخلّ ـ أن أمهات المذاهب الدينية التي كانت سائدة منذ عصر التنوير وما بعده، كالمذهب الأرثوذكسي التقليدي (وإليه ينتسب معظم اليهود)، والمذهب الأرثوذكسي المجدّد، والمذهب الإصلاحي، بالإضافة إلى النزعة العلمانية، كانت معارضة للصهيونية بدرجات متفاوتة، ولأسباب متباينة. وإذا كانت قلّة من أتباع هذه المذاهب قد تبنت الصهيونية بعد ذلك، فإن مرد ذلك في معظم الأحيان إلى العوامل السياسية التي اشتدّ ساعدها بعد المؤتمر الصهيوني الأول، والتي أسهمت في جذب الكثير من أتباع المذاهب الدينية إلى الحركة الصهيونية. وأهم هذه العوامل السياسية التي كان لها دور في هذا الشأن لجوء قادة الصهيونية إلى التمويه والتزييف والتلفيق فيما يتصل بموقفهم من الدين اليهودي.

ومن هنا كان من الضروري أن نختتم هذا الفصل من كتابنا المتصل بموقف المذاهب الدينية من الصهيونية، بنظرة سريعة إلى الوجه الآخر للعملة، نعني موقف الصهيونية من الدين اليهودي. ويكفينا، للتدليل على الصراع بين اليهودية والصهيونية منذ نشأتها، أن نقدم على ذلك شاهداً واحداً من شواهد كثيرة لا تحصى: وهو أن أدوين مونتاغيو، العضو اليهودي الوحيد في الحكومة البريطانية يوم أعلن وعد بلفور (في ٢ تشرين ثاني / نوفمبر ١٩١٧). قد قاتل بضراوة ضد هذا الاعلان. وهذا كله جعل هرتزل يقول بصريح العبارة إنه لم يجد نفوراً من الصهيونية كالذي وجده من اليهود أنفسهم! ذلك أنهم وجدوا في خاتمة التحليل «أن الصهيونية تعني العودة إلى ضرب من القبلية»، وأنها إهانة لليهود وخطر عليهم والقاء بهم في «غيتو» الشرق، فضلاً عن كونها، في نظر معظم المتدينين منهم، «كفراً وهرطقة، واستباقاً لعمل الرب وللنبوءات المسيحانية».

٤ ـ موقف الصهيونية من الدين اليهودي:

طرح زعيم الصهيونية ثيودور هرتزل منذ البداية في كتابه الشهير دولة اليهود السؤال الهام الآتي: «هل ستكون لنا في خاتمة المطاف دولة ثيوقراطية؟»، وأجاب على هذا السؤال بوضوح: «لا». فإذا كانت العقيدة ـ كما قال في ذلك الكتاب ـ تجمعنا، فالعلم يجعلنا

أحراراً . . وإذا كانت هامات قواد الجيش ورجال الدين في دولتنا المقبلة ستتوج بالفخار جزاءً وفاقاً على حسن صنيعهم، فإنه لن يكون لهم ما يقولونه، ولن يكون لهم دور في الدولة اليهودية، لأنهم إذا فعلوا خلقوا مصاعب داخلية وخارجية[٦]».

بل **إن هرتزل لم يخف نزعته الإلحادية**. **فمما نقرؤه في مذكراته** (الجزء الأول من الطبعة الإنكليزية، ص ٢٧٠) بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٩٥ : «لقد قلت للحاخام الأكبر في لندن كما قلت للحاخام الأكبر في باريس إنني لا أخضع في مشروعي الصهيوني لأي دافع ديني». ويضيف في مكان آخر من تلك المذكرات (بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٨٩٥): «لقد سألني آشر مايرز Asher Myers قائلاً: ما هي علاقتك بالتوراة؟ فأجبته: **إنني مفكر حر**». ولكنه ناقض نفسه، وقدّم تنازلات كثيرة لرجال الدين، أو بتعبير أصح لجأ إلى اجتذابهم لتحقيق مآربه. هكذا نجده في خطابه الذي افتتح به المؤتمر الصهيوني الأول في بال عام ١٨٩٧ يقول بصريح العبارة: «إن الصهيونية تعني العودة إلى الديانة اليهودية حتى قبل العودة إلى أرض اليهود». فلقد جعل من الدين وسيلة لبلوغ أغراضه السياسية، واستعان بأسطورة العودة، تلك الأسطورة القوية كما وصفها، من أجل تعبئة الشعب اليهودي. ولا أدلّ على موقفه الحقيقي من الدين اليهودي ومن أسطورة العودة، من قبوله العرض الذي قدمه عام ١٩٠٣ جوزيف شامبرلين J. Chamberlain فيما يتصل بإقطاع أوغندا أرضاً لليهود، ومن رجوعه عنه بعد المؤتمر الصهيوني العالمي السادس عام ١٩٠٦ بسبب الضغوط التي خضع لها بهذا الشأن.

ومثله وأكثر منه فعله **بن غوريون**، مؤسس دولة إسرائيل، الذي لم يكن يعنيه أن تكون واقعة «العهد الإلهي» (العهد الذي أعطاه الله لإبراهيم بإقطاع أرض إسرائيل لليهود، كما يزعم رجال الدين اليهودي) حقيقة أم لا، بل كان يعنيه أن هذه الأسطورة مغروسة في الوجدان اليهودي، ولذلك يجب الاحتفاظ بها حتى بعد أن ثبت أن الوعد الإلهي المزعوم هو مجرد أسطورة شعبية. وهكذا نراه يقول على رؤوس الأشهاد في الكنيست الإسرائيلي أيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ : إن غرضنا الأساسي هو **«إعادة مملكة داوود وسليمان في حدودها التوراتية»**. وقد وقف أعضاء الكنيست جميعاً عند سماع هذه الكلمات وأنشدوا النشيد الإسرائيلي (الهاتكفاه)!

ومع ذلك نرى بن غوريون هذا، في مواضع أخرى، يُناقض قوله عمله، ولا سيما حين يقرر أن الصهيونية ثورة هدفها الانتقال بالشعب اليهودي من وضع شعب يخضع لتاريخ ديني مقدس إلى وضع شعب ذي تاريخ يرتبط بالدين.

وفي الجملة، لقد أصبح الدين، على يد الحركة الصهيونية، مجرد أداة في خدمة الحركة القومية، تتلاعب بها وفقاً للظروف الطارئة والأحداث المستجدة.

الفصل الرابع

الصراع بين اليهودية والقومية الصهيونية بعد ولادة إسرائيل

الصراعات العريقة التي تحدّثنا عنها في الفصل السابق بين اليهودية والقومية الصهيونية، استمرت واشتد أوارها بعد ولادة إسرائيل، ولا تزال تكوّن حتى اليوم جوهر ما نراه من شقاق داخل المجتمع الإسرائيلي، ولا سيما بين ممثّلي الحركات الدينية على اختلاف منازعها وبين ممثلي التيارات العلمانية على اختلاف مشاربها أيضاً. ولا نغلو إذا قلنا **إن الإرث الصهيوني المتناقض ما زال يمزّق إسرائيل كما مزّق اليهود من قبل**، وإن معظم ما نشهد على الساحة الإسرائيلية من تجاذب التيارات والمذاهب يرتد في النهاية إلى صراع أساسي تليد ومتجدّد بين أنصار الهوية الدينية في إسرائيل وبين أنصار الهوية الإسرائيلية، مرده في النهاية إلى الأصول الصهيونية البديئة التي ولدت متناقضة، ولجأت إلى لغة مزدوجة، حين استباحت، في سبيل تحقيق مطامحها السياسية، كل تزييف وتضليل.

١ ـ ولا نستبق الأمور إذا قلنا إن ما حدث بعد خلق الكيان الإسرائيلي، بالقياس إلى ما كان قبله، يُعبِّر عنه عضو الكنيست شلومو بن عامي (من حزب العمل) والأستاذ بجامعة تل أبيب إذ يقول: «إن هذا المجتمع الذي أنشأه الأباء المؤسِّسون من الصهاينة، وأرادوا أن يكون بوتقة صهر تمتزج فيها مختلف الثقافات واللغات، تحوّل إلى مجتمع متعدّد الأعراق ومتعدّد الثقافات ومتعدّد الطوائف. لقد تغيّرت وتفتتت الصورة الأسطورية المأمولة، لتحلّ محلها صور أخرى عديدة لكل منها شرعيتها... بين اليهودي والعربي، وبين المتشدّدين دينياً (الحريديم) والقوميين الدينيين (غوش ايمونيم)، وبين التقليديين والعلمانيين وغيرهم ممن تمتد جذورهم إلى أصول عرقية مختلفة، مثل «السفارديم» و«الأشكناز» و«المهاجرين الروس» و«الإثيوبيين» وغيرهم. وقد أدّى هذا التفتت للصيغة الإسرائيلية إلى تشرذم بين ثقافات وطوائف مختلفة، ولهجات متباينة، ومواقف متصارعة تجاه الدولة اليهودية». **ويرى بن عامي أن هذه الانشقاقات تؤهل لحدوث انفجارات عنيفة داخل المجتمع**[٧].

٢ ـ وإذا نحن أردنا ـ بإيجاز مخلّ أيضاً ـ أن نتحدّث عن أهم الاتجاهات المتصارعة

في إسرائيل اليوم، أمكننا أن نقسمها ـ تسهيلاً للبحث ـ إلى ثلاثة أنواع من الصراعات: الصراعات داخل التيارات الصهيونية ـ الصراعات بين التيارات الدينية ـ الصراعات بين التيارات العلمانية والتيارات الدينية[٨].

٢ ـ ١ ـ **الصراعات داخل التيارات الصهيونية**: وتتجلّى في الصراعات بين الصهيونية الإنسانية (كما يقولون) أو «صهيونية الحد الأدنى» (تبعاً لمواقفها من الأراضي المحتلة)، وبين «الصهيونية القومية» أو «الجابوتنسكية» في صيغتها المعاصرة (أو صهيونية الحد الأقصى)، وبين «الصهيونية القومية المتطرفة» الانعزالية. وتتجلّى **الإيديولوجية الصهيونية الإنسانية** في حركات السلام غير البرلمانية (وهي عديدة، أشهرها حركة «السلام الآن»). وأصحاب هذا الاتجاه ينادون بشعار الدولة لكل مواطنيها، وبإعادة المناطق المحتلة للفلسطينيين، ويعترفون بحقهم في إقامة دولة فلسطينية.

أما «**الصهيونية القومية**» (أو الجابوتنسكية) أو صهيونية الحد الأقصى، فقد سبق أن أشرنا إليها، وهي إيديولوجية تشدّد على العرقية وعلى الأهمية الرمزية المتزايدة لأحداث النازية. وهي نظرية تبدو جذابة للأكثرية من حزب «الليكود» ومعظم أعضاء «الحزب الديني القومي» (المفدال) وحركة «غوش إيمونيم». وهي ترفض مبدأ إعادة الأراضي المحتلة للفلسطينيين والسوريين، وترفض مبدأ إقامة «دولة فلسطينية» بين البحر والنهر، وتسعى بعض الفصائل فيها (كحزب «موليديت») وعدد من قادة الليكود (أرييل شارون وقبله مناحيم بيغن) إلى تحقيق عملية «ترحيل» (ترانسفير) كاملة للعرب في المناطق الفلسطينية المحتلة، حفاظاً على الطابع اليهودي للدولة.

أما الصهيونية القومية المتطرفة فتشترك مع الصهيونية القومية في شعاراتها التي سبق أن ذكرناها، وتعبِّر عن نزعة انعزالية عن العالم، متبنّية شعار «الشعب الذي يسكن وحده». وتستند عقيدتها إلى خليط من التطرف الديني والحق الإلهي للشعب اليهودي في «أرض إسرائيل»، بغض النظر عن الاعتبارات السياسية والأمنية. وترى أن «شعب إسرائيل» و«أرض إسرائيل» و«التوراة» ثالوث لا ينفصم، وعندما يتحقق اندماجها التام سيأتي «المسيح المخلص». ومن هنا ترى أن تحرير الأرض عندها شرط مسبق لتحرير الشعب اليهودي، وأن «تهويد الضفة الغربية، ثم الشرقية لنهر الأردن، شرط أساسي لتحرير الشعب اليهودي، وهي مهمة أمر بها الربّ. وأبرز من يمثّل هذه الصهيونية القومية المتطرفة حركة «غوش إيمونيم» وحركة «كاخ» وحركة «إيل» وحركة «دولة يهودا»، وكلها حركات تتولى الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية وغزة، وتتلقى الدعم حتى من عناصر علمانية كثيرة في أوساط حزب العمل الإسرائيلي وغيره، ومن الأحزاب الدينية سواء منها الصهيونية أو «الحريدية» المعادية للصهيونية، ولا سيما في مجال جهودها الاستيطانية.

٢ ـ ٢ ـ **الصراعات بين الاتجاهات اليهودية الدينية**: وهي اتجاهات عديدة ينتمي

معظمها إلى اليهودية الأرثوذكسية، وتدعو في الجملة إلى إقامة دولة يهودية تحكمها الشريعة والتوراة. ويمكن تقسيمها ـ تبعاً لموقفها من الصهيونية ودولة إسرائيل ـ إلى تيارات ثلاثة:

ـ **الأول هو التيار الذي تمثّله الأحزاب الصهيونية الدينية**، وأبرز ممثليه حزب «المفدال» (الحزب الديني القومي). ويؤكد هذا التيار ارتباطه العميق بالصهيونية القائمة على التوراة والشعب و«أرض إسرائيل». وقد انشقت عن «المفدال» أحزاب مثل: حزب «موراشا» (أي التراث) عام ١٩٨١، وحزب «ميماد»، وهو حزب ديني صهيوني أشكنازي.

ـ **والثاني هو التيار «الحريدي»** الذي تمثّله الأحزاب التي ترفض الصهيونية كعقيدة، وترى أن الصهاينة قد تحدّوا الرب حين أقاموا دولة إسرائيل، لأن قدوم المسيح المخلّص هو وحده الذي يمكن أن يقودهم إلى «أرض الميعاد». وقد نشأ هذا التيار منذ طور مبكر قبل ولادة إسرائيل (منذ عام ١٩١٨)، ومثّله آنذاك حزب «أغودات يسرائيل». واستمر بعد ذلك، وأخذ شكلاً معتدلاً بعض الشيء. وقد قامت منذ عام ١٩٨٤ ثلاثة أحزاب «حريدية» جديدة هي: «شاس»، وهو حزب سفاردي، و«ديغل هتوراه» أي «علم التوراة»، وقد خاض انتخابات الكنيست الثانية عشرة لأول مرة عام ١٩٨٨، وحزب «تامي» (قائمة تقاليد إسرائيل)، وقد اشترك في انتخابات الكنيست العاشرة عام ١٩٨١ (بزعامة أهارون أبو حصيرة).

ـ **والثالث هو التيار الحريدي المعادي للصهيونية ولدولة إسرائيل معاً**، وتمثّله جماعات «حسيدي سطمار» و«ناطوري كارتا» والطائفة الحريدية. وهذه الجماعات ترفض الاعتراف بوجود دولة إسرائيل، وتناضل ضدها.

٢ ـ ٣ ـ **الصراعات بين التيارات العلمانية والتيارات الدينية**: ولا شك أن هذه الصراعات هي أخطر ما تعاني منه إسرائيل اليوم، ولا سيما أن التيارات الدينية قد اشتد ساعدها يوماً بعد يوم، وبوجه خاص بعد كارثة حزيران / يونيو ١٩٦٧ (التي اعتبرها الكثيرون من المتدينين وغيرهم نصراً من عند الرب). ويكفي أن ننظر إلى نتائج انتخابات الكنيست عام ١٩٨٨، ثم عام ١٩٩٢ وأخيراً عام ١٩٩٦ وعام ١٩٩٩، كي ندرك أن الأرقام التي حصلت عليها الأحزاب الدينية في انتخابات عام ١٩٩٦ تنبىء بحدوث مدّ ديني كاسح وبتغيّر عميق في الواقع الديني في إسرائيل. فلقد حصلت الأحزاب الدينية مجتمعة في انتخابات أيار / مايو ١٩٩٦ على ٢٣ مقعداً (تسعة مقاعد لحزب «المفدال»، وعشرة مقاعد لحزب «شاس»، وأربعة مقاعد لحركة «يهدوت هتوراه» الممثّلة لحزب «أغودات يسرائيل»)، مما أدّى إلى حصول هذه الأحزاب مجتمعة لأول مرة، على عدّة وزارات (الداخلية ـ المواصلات ـ التعليم ـ الأديان). أما أسباب تزايد قوة هذه الأحزاب الدينية فالحديث عنها يلتهم صفحات طوالاً. ويعنينا أكثر من ذلك أن نتأمل انعكاسات هذا المد الديني على الإيديولوجية الصهيونية من جهة، وعلى واقع إسرائيل ومستقبلها من جهة ثانية.

٣ ـ **أما انعكاسات هذا المد الديني على الإيديولوجية الصهيونية**، فهي كثيرة، حسبنا أن نشير من بينها إلى أهمها، نعني الانعكاسات على الصراع حول الهوية في إسرائيل، وهو صراع قديم جديد دوماً.

ولا شك أن أول مشكلة تشغل الإسرائيليين اليوم هي التساؤل عن تعريف «اليهودي»: من هو «اليهودي»؟ ومن هو «اليهودي المتدين»؟ أو «اليهودي الأرثوذكسي»؟ ومن هو «العلماني»؟ ومن هو بالتالي المواطن الإسرائيلي؟ وما شأن «قانون العودة» اليوم (الذي صدر عند إقامة دولة إسرائيل)؟ وكيف يمكن حل الخلاف حول من يحقّ له التجنس في إسرائيل؟ وما شأن «العرق» في الهوية الإسرائيلية؟... إلخ.

ولن نخوض في هذا الموضوع الواسع [٩]، وسوف نعود إليه بعد قليل، وقد فصّلنا الحديث عنه في كتابنا **إسرائيل وهويتها الممزّقة** [١٠]، وحسبنا أن نذكر ـ في حدود بحثنا ـ أن موضوع الهوية في إسرائيل لا يقع الخلاف حوله بين العلمانيين والمتدينين فحسب (وكل منهم يمثّل حوالى نصف سكان إسرائيل)، بل يشمل اتجاهات وحركات أخرى (داخل العلمانيين والمتدينين أو خارجهما) أهمها: الهوية في نظر الاتجاه «الصباري» الذي سبقت الإشارة إليه ـ الهوية وفلسطينيو ١٩٤٨ (الذين يمثلون حوالى ٢٠٪ من سكان إسرائيل) ـ الهوية في نظر دعاة حركات السلام ـ الهوية في نظر كل من الإشكناز والسفارديم (الذين يمثلون ٥٥٪ من سكان إسرائيل) ـ الهوية والأقليات الدينية في إسرائيل (من مسلمين ومسيحيين).

الفصل الخامس

الصراع بين اليهودية والصهيونية اليوم وحركة "المؤرّخين الجدد"

لعل أبرز ما يمثّل الصراع الذي تحدّثنا عنه حول «هوية» إسرائيل، ويلخّص معركة اليهودية مع الصهيونية، ويفضح زيف الأسطورة الصهيونية وأكاذيبها، ما طرحه أولئك المؤرّخون الإسرائيليون، الذين عُرفوا باسم "المؤرخين الجُدد"، من ضرورة إعادة صياغة المجتمع الإسرائيلي، من خلال إعادة التفكير في تاريخ إسرائيل، ومن خلال غسل الذاكرة القومية التي خرّبتها الدعايات الصهيونية وتلفيقات دولة إسرائيل.

١ ـ نشأة "المؤرّخين الجُدد»د لإسرائيل:

ونبدأ بالحديث عن ولادة هذا الاتجاه الجديد الذي مثّله "المؤرّخون الجُدد"، والذي أيده علماء اجتماع جُدد أيضاً، ولقي صدى واسعاً لدى جمهرة كبرى من أبناء إسرائيل، ولا سيما الشباب منهم ـ فضلاً عن أنصار السلام وعن العلمانيين ـ والذي يكاد يُحدث ثورة فكرية عارمة في إسرائيل. . **هذا بالإضافة إلى ما لقيه من اهتمام كبير في الغرب.**

ومن أهم عوامل ولادة هذا الاتجاه، منذ النصف الأخير من الثمانينيات بوجه خاص، **فتح الأرشيفات المتصلة بالسنوات الأولى من قيام دولة إسرائيل**، وذلك تطبيقاً للقانون الإسرائيلي الذي صدر عام ١٩٥٥ الذي ينصّ على إغلاق هذه الأرشيفات أمام عامة الناس لمدة ثلاثين عاماً. وهكذا تمّ، بدءاً من نهاية السبعينيات، فتح الأرشيفات المتصلة بالسنوات الأولى من نشوء دولة إسرائيل، وأصبحت في متناول الباحثين للمرة الأولى آلاف من الوثائق التي تلقي ضوءاً جديداً على مرحلة كان قد احتكر وثائقها رجال السياسة وموظفو حزب «ماباي» (حزب العمل كما سُمي بعد ذلك) وقوّاد الجيش الإسرائيلي، من دون أن يخطر ببالهم أنه سيأتي يوم يطّلع فيه آخرون على تقاريرهم ورسائلهم وقراراتهم. وهكذا تم فتح أوراق وزارة الخارجية من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٥٦، وتم الإفراج عن أكداس ضخمة من الرسائل والتقارير والبروتوكولات والمذكرات الوزارية، ولا سيما تلك التي صدرت عن مكتب رئيس الوزراء في ذلك الحين، نعني دافيد بن غوريون. وذلك بالإضافة إلى أوراق

شخصية خاصة، وإلى وثائق الأحزاب السياسية. وبقي الوصول إلى الوثائق العسكرية وحدها محدّداً وضيّقاً جداً. أما الوثائق الحسّاسة التي تمس أمن الدولة، أي معظم الوثائق العسكرية والاستخباراتية، فلا يُمكن الإفراج عنها والاطلاع عليها إلاّ بعد خمسين عاماً، وإلاّ إذا أمكن الحصول على إذن خاص.

٢ ـ المعركة حول تاريخ إسرائيل:

ومنذ ذلك الحين، أي منذ النصف الثاني من الثمانينيات، بدأت المعركة حول تاريخ إسرائيل وذاكرتها الجماعية.

فلقد كشف "المؤرِّخون الجُدد"، من خلال الوثائق التي تمّ الإفراج عنها، عن حقائق كثيرة كانت قد أخفتها عن أعين الكثرة الكاثرة من أبناء إسرائيل أكاذيب الإعلام الرسمي، ولا سيما فيما يتصل بالعنف الذي لجأت إليه الصهيونية من أجل إقامة دولة إسرائيل بأي ثمن، وفيما يتصل بالوسائل القمعية التي استُخدمت من أجل تهجير العرب من ديارهم عن سابق تصوّر وتصميم، خلافاً لما أشاعه الإعلام الرسمي خلال سنوات طويلة من أن عرب فلسطين نزحوا بإرادتهم وبدفع من الدول العربية. وهكذا ظهرت في أواخر الثمانينيات باللغة الإنكليزية كُتبٌ عديدة هامّة لباحثين إسرائيليين[١١]. وقد وضعت هذه الكتب موضع التساؤل والشك القناعات التي كانت مستقرة حول تاريخ الصهيونية وإنشاء دولة إسرائيل.

ومن العسير تلخيص أفكار هؤلاء "المؤرِّخين الجُدد". ونكتفي بذكر رؤوس أقلام عن الحقائق التي خلصوا إليها نلخّصها في النقاط الآتية:

أ ـ لقد كان الصهاينة منذ نشأة الصهيونية يخشون من عدم اقتناع الشعب اليهودي بصحة الأهداف والمقاصد الصهيونية. ومن أجل هذا جرت تعبئة عامة لكل الوسائل الممكنة من أجل بناء شرعية ما. **وقد بنيت هذه الشرعية من خلال الأساطير.**

ب ـ تركّزت التعبئة الإيديولوجية قبل ولادة إسرائيل وبعدها حول **إعادة تأويل الماضي تأويلاً غائياً**، وجعله في خدمة القضية.

ج ـ في هذا التاريخ المجهز وفق الطلب، كان الحديث عن العرب الفلسطينيين وعن ماضيهم وعن وجودهم وعن ثقافتهم وعن تهجيرهم عام ١٩٤٨، أمراً محرّماً.

د ـ منذ تأسيس الجامعة العبرية أخذ المؤرِّخون الصهاينة يبحثون في الوثائق عن براهين تثبت **وجود قومية يهودية قبل بدايات الحركة الصهيونية.** ولهذه الغاية أخذوا يتخيّرون الينابيع، وحاولوا أن يقولوا بوجود آثار هذه القومية منذ القرن السابع عشر بل منذ العهود التوراتية.

هـ ـ وهذا ما نجده بوجه خاص عند أصحاب ما يُعرف باسم «مدرسة القدس» التي يمثّلها أمثال غرشوم شوليم Gershom Sholem، وإسحق بير Isaac Bear، وبن تزيون

دينور Ben Zion Dinur، الذين فبركوا منذ الثلاثينيات تاريخ الشعب اليهودي، ذلك الشعب الذي اتصف ـ في زعمهم ـ طوال تاريخه بوحدة لا تتزعزع، وباستمرارية لا تصدّع فيها، وبتوجّه مطلق نحو «قطب» أساسي، هو قطب «أرض إسرائيل» Eretz Israël.

و ـ وقد تواصل هذا **التاريخ الملفق** بعد ولادة دولة إسرائيل، من خلال العديد من المؤلفات (مثل كتاب: *Sefer Toledot Ha Haganash*، الذي يتحدث عن بطولات الهاغانا). ويقدّم لنا هؤلاء المؤلّفون الملفّقون ـ كما يصفهم "المؤرّخون الجُدد" ـ تاريخاً جميلاً بطولياً مجيداً، ليست فيه أخطاء هو تاريخ الأخيار ضد الأشرار! وقد سارت على نهجهم طائفة من أساتذة الجامعات والباحثين.

ز ـ ومن أجل تعبئة الشعب اليهودي هذه، لجأ الصهاينة ومن تبعهم من المفكّرين إلى طائفة من الأسلحة مقتبسة غالباً من الديانة اليهودية، أو إلى وقائع من التاريخ اليهودي القديم كما يرونه (من مثل ملحمة المكابيين، والدفاع عن «مخطوطات البحر الميت» Manada، والثورة الكبرى في «باركوخيا» Barkochba، أو إلى ملاحم يبتدعونها من التاريخ الحديث).

ح ـ **وهكذا وُضع الدين اليهودي في خدمة الدين المدني الجديد، وفي خدمة القومية الجديدة، وأصبحت كتابة التاريخ سلاحاً وأداة إيديولوجية.** فكلمة «أرض إسرائيل» مثلاً استُخدمت للإشارة إلى جميع العصور، حتى حين كانت تحكمها شعوب أخرى، أو حين لم يكن فيها يهودي واحد. وبذلك كان المؤرِّخ، حين يلجأ إلى هذا التعبير («أرض إسرائيل»)، يعطي اليهود حقاً أبدياً في أرض إسرائيل.

٣ ـ "المؤرخون الجُدد" وتهجير الفلسطينيين:

أ ـ على أن أهم ما تريث عنده هؤلاء "المؤرِّخون الجُدد" وأولوه اهتماماً أساسياً، موضوع الفلسطينيين ونزوحهم عام ١٩٤٨. فالوثائق الجديدة التي تم فتحها كشفت لهؤلاء المؤرِّخين ـ وللشعب الإسرائيلي ـ حقائق عن حرب عام ١٩٤٨ وما بعدها، يعرفها العرب، بينما كان يجهلها معظم الإسرائيليين الخاضعين لمنظور الدولة ودعايتها ووسائل إعلامها وأساليب تضليلها.

وهكذا أشار هؤلاء "المؤرِّخون الجُدد" إلى ما رافق قيام دولة إسرائيل من مذابح وطرد لأهل البلاد وتخريب للمدن والقرى. وخلصوا من ذلك إلى القول بأعلى صوتهم **إن تاريخ دولة إسرائيل هو تاريخ أقلية بيضاء أوروبية، استولت على منطقة بالقوة والعنف.**

ب ـ لقد كان التاريخ الإسرائيلي التقليدي ـ كما نعلم ـ يدّعي أن اللاجئين الفلسطينيين (حوالى نصف مليون إنسان) قد فروا بإرادتهم استجابةً لنداء زعمائهم الذين منّوهم بعود

قريب إلى بلادهم بعد النصر. ولم يكن هذا التاريخ يكتفي بأن ينفي أن تكون الوكالة اليهودية ثم الحكومة الإسرائيلية قد خطّطتا لهذا التهجير، بل يزعم أن المذابح القليلة ـ كما يقول ـ التي جرت، وعلى رأسها مذبحة «دير ياسين» في ٩ نيسان/ إبريل ١٩٤٨ ـ قد ارتكبتها عصابات «شترن» و«الإرغون» و«ليحي» (منظمة مقاتلي حرية إسرائيل) وغيرها من ورثة الصهيونية اليمينية المتطرفة التي نادى بها جابوتنسكي.

ج ـ وقد أنكرت هذه الادعاءات الإسرائيلية منذ وقت مبكر، في الخمسينيات، بعض أوساط اليسار الصهيوني. غير أن الردّ الحقيقي على تلك المزاعم كان ذلك الذي اضطلع به، منذ النصف الثاني من الثمانينيات، "المؤرّخون الجُدد"، وعلى رأسهم سمحا فلاپان Simha Flapan، وتوم سيغف Tom Segev، وآفي شلايم Avi Schlaim، وإيلان پاپيه Ilan Pappe، وبنّي موريس Benni Moris. وقد كان كتاب هذا الأخير: **نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين (١٩٤٧ ـ ١٩٤٩)**[١٢]، هو الذي دق ناقوس الفضيحة وكشف أبعادها (على الرغم مما تثيره بعض أقواله من تحفّظات لدينا). وقد أطلق بعض الكتّاب الإسرائيليين بعد ذلك على عملية التهجير العدوانية التي ارتكبها الصهاينة ضد الفلسطينيين اسم «خطيئة إسرائيل الأولى»[١٣].

ودفع ذلك أولئك الكتّاب إلى أن يضعوا شريعة الدولة اليهودية نفسها موضع التساؤل. ويذكر بني موريس نفسه ـ وهو ذو موقف معتدل كما قُلنا، هاجمه بعض الكتّاب العرب ـ موقف بن غوريون المتصل بفلسطينيي اللّد والرملة، حين سأله إيغال آلون Igal Allon وإسحق رابين عما سيفعل بهم، فأجاب: Garesh otam، أي اطردوهم، وفي رواية أخرى مخففة اكتفى بإشارة بيده تعني «اطردوهم». ويحمل بني موريس على موقف بن غوريون جملة، ويعتبره «الطارد الأكبر» للعرب، على الرغم من ادعائه بأنه «لم يطرد عربياً واحداً». وهو ادعاء وصفه بني موريس بأنه كذب محض.

٤ ـ "المؤرّخون الجُدد" والأدباء وعلماء الاجتماع:

لقد ذاع موقف "المؤرّخين الجُدد" هذا، ولقي رواجاً كبيراً، وتأساه بعض الأدباء، وسانده عدد من علماء الاجتماع.

أ ـ أما الأدباء، فقد انتقد الكثير منهم الأدب الذي كان سائداً والذي كان يُعبّر عن رأي السلطة الحاكمة، وتبنوا في كتاباتهم مواقف "المؤرّخين الجدد". ومن أشهر هؤلاء الأدباء إسحق لاؤور Itshak Laor، ويراح غوفر Yerah Gover. أما الأول الذي نشر مؤخراً آراءه النقدية الشديدة **ضد أدب السلطة**، فقد بيّن أن الأدباء قد سخّروا خيالهم وأقلامهم لخدمة التاريخ الصهيوني، على حساب حرية الفكر عندهم. وأشار فيما أشار إلى أن **«الذاكرة الرسمية» لم تدع هامشاً يتحرك فيه الكتّاب من خلال ذاكرتهم الشخصية**. ولهذا

نرى أكثرهم ـ كما يقول هؤلاء «الأدباء الجُدد" ـ يرتضون التفسيرات الرسمية للتاريخ من دون أن يناقشوها. وبهذا أسهموا جميعاً في توليد الرواية الصهيونية الزائفة للتاريخ، وأسهم أدبهم بالتالي في قبول التاريخ الصهيوني وتاريخ إسرائيل على علاّته وكأنه «أمر بديهي». وأبرز شاهد على ذلك، صلة هؤلاء الكتّاب التقليديين بالشخص «الآخر» المهمش، سواء كان فلسطينياً أو يهودياً شرقياً. فهي في نظر لاؤور صلة استعمارية، كما تشهد على ذلك كتابات الروائيين الكبار المنتسبين إلى اليسار الصهيوني.

وإلى مثل هذا يذهب أكبر الكتّاب الإسرائيليين الأحياء، وهو سامح إزهار Sameh Izhar الذي يبيّن أن بن غوريون لم يكن يرى في الأدب إلا أداة من أدوات التعبئة الإيديولوجية للدفاع عن الصهيونية، وكان يتوقع من الروائيين أن ينقلوا إلى الشعب رؤيته التاريخية والمنظور التاريخي الذي رسمه هو. وجدير بالذكر أن إزهار نشر منذ عام ١٩٤٩ كتاباً بالغ العنف، أكد فيه أن الإسرائيليين، أثناء حرب عام ١٩٤٨، مارسوا العنف والقتل والتهجير، وذلك في وقت لم تكن فيه مثل هذه الحقائق معروفة لدى الإسرائيليين.

وقد سار على نهج لاؤور الكاتب العبري هربرت أشعيا Herbert Izea، في كتاب بيّن فيه أن هذا الأدب يجهل أو يتجاهل تماماً المشكلات الخلقية والإنسانية التي يُعاني منها المجتمع الإسرائيلي، كمشكلة عدم التجانس الاجتماعي، ومشكلة الاستقطاب الاقتصادي، ومشكلة التفتت الثقافي، ومشكلة التشويه الثقافي للغريب الفلسطيني المقيم في إسرائيل أو لليهودي الشرقي أو ليهود الفلاشا.

ب ـ على أن أفكار "المؤرِّخين الجدد" قد امتدت، في خاتمة الثمانينيات وبداية التسعينيات، إلى ميادين علمية أخرى، كعلم الاجتماع والأنثربولوجيا، والعلوم السياسية، والدراسات المتصلة بالشرق الأوسط، والفلسفة. واحتدم الصراع داخل هذه الميادين جميعها بين الذين يذهبون مذاهب "المؤرِّخين الجُدد"، وبين معارضيهم. وههنا وضع عدد من علماء الاجتماع ومن المشتغلين بالدراسات الإنسانية موضع التساؤل والشك بعض المبادىء السائدة في البحث السوسيولوجي: كالعلاقة بين «الصباريم» (اليهود الذين ولدوا في فلسطين قبل ولادة الدولة) وبين الناجين من «الشواه» (المحرقة)، والهجرات الجماعية، وموقف الجمهور الإسرائيلي من قضية السلام، والعلاقة بين الحركة الصهيونية وبين يهود الشتات، والدور المركزي للمسألة الفلسطينية في دراسة المجتمع الإسرائيلي، . . . إلخ.

وههنا أيضاً ـ كما في الأدب ـ أخذ «**علماء الاجتماع الجُدد**" على علم الاجتماع الرسمي الصهيوني خضوعه المطلق للسلطة وكونه أداة طيعة لخدمة أغراضها. وقد جمع علماء الاجتماع هؤلاء في كتابٍ صدر حديثاً ما كتبوه بهذا الشأن.

وقد أخذ «علماء الاجتماع الجُدد» هؤلاء على من سبقهم أنهم نظروا إلى الصراع العربي الإسرائيلي نظرتهم إلى شيء خارج المجتمع الإسرائيلي، ولم يدركوا أن هذا الصراع عامل أساسي في صياغة المجتمع الإسرائيلي من داخله. ولقد كان عالم الاجتماع جوناتان شابيرو Jonathan Chapiro (الذي كان عميداً لكلية العلوم الاجتماعية في تل أبيب) أول من بيَّن خضوع المجتمع الإسرائيلي لسلطة النخبة، وأكد بالتالي أن المجتمع الإسرائيلي لم يكن ديمقراطياً إلاّ في ظاهره. وقد تفحّص لهذه الغاية أصول حزب العمل، وكشف عما ساده من روح التسلّط الفظ، الأمر الذي حال دون تكوين نخبة بديلة في السنوات الأولى من حياة الدولة. وقد حاول اثنان من «علماء الاجتماع الجُدد» هؤلاء، هما باروخ كيمرلنغ Baruch Kimmerling وغرشون شافير Gershon Shafir أن يثبتا أن الدولة خلقت حكاية تاريخية خيالية تروي ولادة نهضة قومية وبزوغ اشتراكية مثالية، في حين أن الواقع السياسي والاجتماعي لهذه الدولة كان مجرد واقع استعماري. **بل إن كيمرلنغ يقتحم أحد كبائر المحرمات، حين يفسّر نجاح الصهيونية باجتماع عاملين: أحدهما هو الاستعمار البريطاني، والثاني هو القومية اليهودية المصطنعة. والصهيونية عنده هي مؤسسة استعمارية لا جدال فيها، جاءت لتشيد بناءها على أنقاض مجتمع قائم وإنسان مقيم في أرضه.**

وثمة ميدان آخر طرقه «علماء الاجتماع الجُدد»، هو ميدان الحديث عن **تاريخ إسرائيل بوصفها مجتمعاً عسكرياً**. فلقد كان علماء الاجتماع التقليديون لا يخطر على بالهم أن تكون إسرائيل دولة حربية، أما «علماء الاجتماع الجدد» فيرون أن النزعة العسكرية هي المحور الذي تنظّم إسرائيل من خلاله حياتها وعملها، وتحدّد حدودها وهويتها، وترسم قوانين لعبتها. بل إن أحد الباحثين المحدثين (وهو أوري بن إيليعيزر Uri Ben Elezar[١٤]) يبيّن أن الضغوط الداخلية، لا العداء العربي، هي التي ولّدت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. فالنظام القائم في إسرائيل كان قد أصابه الضعف خلال الستينيات، نتيجة لحرب السويس والاضطراب الذي أحدثته هجرة «السفارديم» (اليهود الشرقيين). ولهذا كان ذلك النظام في حاجة إلى تصعيد صراعه مع العرب من أجل تثبيت سلطته.

وهكذا نرى، في خاتمة المطاف، أن «علم الاجتماع الجديد» هذا ينكر على الصهيونية الصفتين اللتين تفخر بهما: أولاهما أنها حركة إحياء قومي، والثانية أنها حركة تعمل من أجل العدالة الاجتماعية.

٥ ـ نظرة تحليلية ونقدية لحركة "المؤرّخين الجُدد" وأبرز أصحابها[١٥]:

أثارت حركة "المؤرّخين الجدد" ـ على نحو ما أتينا على وصفها بإيجاز شديد ـ جدالاً واسعاً في الأوساط اليهودية وفي الأوساط العربية على السواء. ولعل من المفيد أن

نتوقف وقفة أكثر تفصيلاً عند هذه الحركة وعند مؤيديها وناقديها.

٥ ـ ١ ـ مستبقو حركة "المؤرخين الجُدد":

ونبدأ في هذا المجال بحقيقة لا يجوز إغفالها وهي أن حركة "المؤرّخين الجدد" هذه لم تكن أول من شنّ الحملة على إسرائيل، بسبب تهجيرها للفلسطينيين بوجه خاص أيام حرب ١٩٤٨، ولأسباب أخرى يتحلق معظمها حول ما مارسته من عنف وإرهاب من أجل تحقيق أغراضها الصهيونية. فمنذ حرب ١٩٤٨، بادر الحزب الشيوعي الإسرائيلي إلى فضح الوسائل المريعة التي استخدمتها منظمة «الهاغانا» ومن بعدها الجيش الإسرائيلي، من أجل طرد عشرات آلالاف، بل مئات الآلاف، من الفلسطينيين من أراضيهم. وتولت صحيفتا الحزب آنذاك (صحيفة **الاتحاد** الصادرة باللغة العربية، وصحيفة **كول هاعام** الصادرة باللغة العبرية) وصف ما جرى من طرد وتشريد (كطرد العرب من حيفا على سبيل المثال). وفي الكنيست، كانت مواقف المنتسبين إلى الحزب الشيوعي تزعج بن غوريون وصحبه.

وفي عام ١٩٤٩، كتب الكاتب الإسرائيلي الشهير إزهار سميلانسكي Yizhar Smilanski مجموعة من القصص القصيرة، استقاها من تجربته كضابط مخابرات في الجيش الإسرائيلي، روى فيها مفصلاً طرد سكان قرية أطلق عليها اسماً من مخيلته (فسمّاها خربة هزعا Herbet Hiz'a). ولم يخف في وصفه لعملية الطرد أي وسيلة من الوسائل التي استخدمها «جيش الدفاع الإسرائيلي» (تساحال) من أجل إرهاب سكان القرية وإجبارهم على الفرار. وبعد أربعين عاماً عرض التلفزيون الإسرائيلي فيلماً مستقى من هذه القصة، الأمر الذي أثار ضجة كبرى في وسائل الإعلام المختلفة.

كذلك نشرت عام ١٩٥٠ «رابطة حقوق الإنسان والمواطن» التي كان يرأسها الشاعر والكاتب مردخاي آفي ـ شول Mordekaï Avi-Shaul، عرضاً مفصلاً لطرد الفلسطينيين من بلدة المجدل (التي أطلق الإسرائيليون عليها بعد ذلك اسم أشكلون Ashkelon).

وفي عام ١٩٦٦ نشر كتّاب إسرائيليون بأسماء مستعارة كتاباً شهيراً بالإنكليزية عنوانه **السلام السلام حيث لا سلام**، وفيه أفردوا فصلاً خاصاً للوصف المفصّل لما جرى في القرى التي طرد منها الفلسطينيون وهُدّمت بعد ذلك.

والأمثلة كثيرة على الأصوات التي ارتفعت منذ وقت مبكر، في السنوات التي تلت عام ١٩٤٨، مؤكّدةً هول ما جرى من تشريد للفلسطينيين، سواء لدى بعض الإسرائيليين أو لدى الفلسطينيين (على نحو ما نجد على سبيل المثال في كتاب الفلسطيني صبري جريس بعنوان **العرب في إسرائيل** أو لدى الشاعر الشهير محمود درويش، أو لدى الكاتب البارز إميل حبيبي). ومن أبرز الجهود في هذا الشأن ما قامت به، خلال الأعوام ١٩٦٠ ـ ١٩٨٠، صحيفة **ماتزبن** (البوصلة) الناطقة باسم "المنظمة الاشتراكية" (وهي منظمة تروتسكية المنازع)، وذلك حين أفردت صفحات كثيرة لرواية «بطولات» الجيش الإسرائيلي في

مواجهة المدنيين الفلسطينيين أثناء حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩! وقد نشرت بوجه خاص قائمة تضم أسماء ٣٨٤ قرية عربية خرّبتها إسرائيل عام ١٩٤٨، وقائمة أخرى تشتمل على أسماء التجمعات السكنية اليهودية التي بُنيت على أنقاضها.

على أن سمحا فلاپان ـ في كتابه الشهير عن **ولادة إسرائيل**[١٦] الصادر عام ١٩٨٧ ـ كان أول مسؤول صهيوني تجرأ على أن يشكك في بعض المواقف الإسرائيلية الرسمية المتصلة بحرب عام ١٩٤٨، وعلى أن يشير بالبنان إلى مسؤولية إسرائيل في خلق مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. فلقد كان له قصب السبق ـ وهو الصهيوني اليساري ـ في أن يكشف عما وراء مسلّمات السلطة الإسرائيلية القائمة من أساطير وأوهام ـ ومن بعده تكاثرت الكتابات الإسرائيلية التي تدحض الروايات الرسمية المزيفة عن تاريخ إسرائيل ونشأتها، وعن حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، وعن طرد الفلسطينيين وعما عانوه من إرهاب وقتل جماعي.

وكان من أوائل من خاض هذا الميدان ـ ميدان فضح التزييف الرسمي لتاريخ إسرائيل ونشأتها ـ بني موريس وإيلان پاپيه وإلى حد ما شاباطاي تيڤث Shabataï Teveth وسواهم ممن أطلق عليهم لقب "المؤرّخين الجدد" كما سبق أن رأينا.

وقد أشرنا في الصفحات السابقة بإيجاز إلى أهمّ أفكار هؤلاء "المؤرخين الجدد". ونودّ ههنا أن نتريث بتفصيلٍ أكبر عند الثلاثة الذين خصّصناهم بالذكر (بني موريس ـ پاپيه ـ تيڤث) وعند ولادة أفكارهم بهذا الشأن. لا سيما أننا سنرى من خلال عرضنا هذا لأفكارهم نقاط الضعف في هذه الأفكار، وما تعرضت له من نقد، وعجزها عن أن تمضي في نقدها للمواقف الإسرائيلية حتى نهاية الطريق، بسبب استمساكها ـ رغم كل شيء ـ بالمنطلقات الصهيونية وتلكّئها عن تجاوز تلك المنطلقات.

٥ ـ ٢ ـ بني موريس ما له وما عليه:

يروي لنا بني موريس نفسه قصة الأسباب التي جعلته يُعنى بالبحث عن التاريخ الفعلي لحرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ وما تعرّض له الفلسطينيون خلالها وبعدها من مآسٍ وتشريد. ومما يقوله بهذا الصدد: «لقد كان ذلك في أواخر عام ١٩٨٢، بعد حرب لبنان. لقد كنت أعمل صحافياً أثناء تلك الحرب. وفي إطار عملي التقيت لاجئين فلسطينيين وأجريت معهم مقابلات وسألتهم عن الوضع آنذاك، ولكنهم قصّوا عليّ أيضاً أحداث حرب عام ١٩٤٨. وكنت في ذلك الحين أجري أبحاثاً حول "البالماخ" (التي تمثّل صفوة المحاربين مع "الهاغانا"). وقد أتاحت لي تلك الأبحاث أن أطّلع على الوثائق الخاصة بهرب وتهريب الفلسطينيين في ذلك العام. ولأسباب أجهلها، توقف أولئك الذين كانوا يقدمون لي الوثائق المتصلة بتاريخ "البالماخ" عن تقديم تلك الوثائق فجأة. ولعلمي بأنني لن أستطيع ـ بدون إسهامهم ـ متابعة أبحاثي عن هذا الموضوع، فقد عزمت على أن أشتغل بالدراسات عن اللاجئين الفلسطينيين بين ١٩٤٧ و ١٩٤٩. وبين وثائق "البالماخ" التي استطعت الحصول

عليها عثرت على وثائق حول الأوامر التي أعطاها إسحق رابين لطرد العرب من اللّد. ولفت نظري أن محتوى بعض تلك الوثائق مباين للدعاية الرسمية التي ألفنا سماعها حتى ذلك الحين. وهكذا أدركت أن بين يديّ مواد من شأنها أن تلقي ضوءاً جديداً على تاريخنا. ولم يغب عن ذهني أن هذا الموضوع ـ إذا نظرنا إليه من منظار التحقيق التاريخي ـ موضوع متفجّر لأنه يخالف الرواية الصهيونية، تلك الرواية التي تبدو لي خاطئة من أساسها، لأنها رواية متحيّزة ذات أهداف دعائية محضة».

وهكذا بدأ بني موريس أبحاثه حول هذا الموضوع الشائك، موضوع موقف إسرائيل عام ١٩٤٨ من الفلسطينيين على نحو ما عثر عليه في وثائق «البالماخ». وبعد أن أغلقت هذه الوثائق في وجهه، لجأ إلى وثائق الجيش الإسرائيلي، وإلى وثائق الدولة، بعد أن فُتحت خلال الثمانينيات وثائق وزارة الخارجية، التي تشتمل ـ فيما تشتمل ـ على وثائق «إدارة الشرق الأوسط»، وبعد أن فتحت أيضاً ـ بناء على طلب بني موريس ـ وثائق «وزارة الأقليات» التي كانت في الوقت نفسه وزارة للأمن العام، والتي أصبحت بعد ذلك «مكتب المستشار للشؤون العربية لدى رئيس الوزراء»، وفتحت كذلك وثائق وزارة الزراعة ووزارة المال ووزارة العدل. وقد كان بني موريس مدركاً بأن كثيراً من الوثائق قد حُجبت عنه.

على أن بني موريس لجأ أيضاً إلى وثائق الحركة الصهيونية، ووثائق مختلف الأحزاب السياسية، وإلى وثائق بن غوريون، وحتى إلى وثائق بعض الجماعات والمنظمات المحلية، كجماعات «الكيبوتزيم» (المزارع التعاونية) على سبيل المثال.

ولم يقف المؤرّخ بني موريس عند هذا الحد، بل عمل خارج إسرائيل، ونقّب في وثائق بريطانيا، التي كانت تعلم علم اليقين ـ بحكم كونها الدولة المنتدبة على فلسطين حتى ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ ـ ما كان يجري من أحداث. بل إنه قام بدراسة الوثائق القومية للولايات المتحدة نفسها. . وبفضل هذه الوثائق المتنوعة استطاع هذا المؤرّخ أن يقارن بين المصادر، وأن يستخلص منها النتائج على نحو ما بدت له. ولم يرجع في هذا البحث كله إلى مصادر عربية، لعدم معرفته بالعربية، ولزعمه بأن مثل هذه المصادر غير موجودة (وهذا غير صحيح، كما سنرى).

وعلى الرغم من هذه الجهود الكبيرة التي بذلها بني موريس، لم يستطع ـ كما صرّح هو نفسه ـ أن يكوّن حكماً محدداً حول هذا الموضوع، **ولم يبلغ به الأمر حدّ تحميل إسرائيل المسؤولية الكاملة عن نزوح الفلسطينيين، وإن حمّلها معظم المسؤولية**. ويقول في تبرير هذا الموقف: «إن مهمتي ـ بوصفي مؤرّخاً ـ هي أن أصف ما حدث، لا أكثر ولا أقل. والنتائج التي خلصت إليها من قراءة الوثائق ومن تأليف كتابي ليست فيما أرى أطروحة مبيّتة أدافع عنها».

ومن هنا، فإن النتائج التي توصل إليها بني موريس تختلف عن الرواية الرسمية

للأحداث كما تختلف عن الرواية الفلسطينية. فهذه الرواية الفلسطينية ادّعت دوماً ـ كما يقول ـ أن الصهيونية أعدّت نفسها سلفاً لطرد جميع العرب من فلسطين ورسمت خطة مسبقة لذلك، وأن دولة إسرائيل قامت بحربها عام ١٩٤٨ ولديها مخطط شامل للطرد، على حد تعبير وليد الخالدي، كما يقول. أما هو فيؤكّد أنه لم تكن هنالك «خطة رائدة» Master plan لطرد الفلسطينيين، بل كانت هنالك فقط إرادة قوية لإكراههم على النزوح تجلّت خلال مراحل الحرب كلها. وقد يكون بن غوريون ـ كما يقول بني موريس ـ قد راودته استراتيجيةٌ شاملة لنقل الفلسطينيين من ديارهم إلى ديار أخرى («الترانسفير» كما جرى على الألسن)، ولكنه لم يضع هذه الاستراتيجية موضع التطبيق. على أنه يقرّ ويعترف ـ في مقابل ذلك ـ بأن الرواية الصهيونية التي تدّعي أن العرب قد هربوا بمحض إرادتهم أو طُلب إليهم الهرب، رواية خاطئة (إلا في حالات نادرة وفي بعض الأماكن القليلة).

ومن النّصف أن نقول إن بني موريس ـ على الرغم من كل شيء ـ قد خلص إلى نتيجة هامة وأساسية عبّر عنها بقوله: «في الأحوال كلها لم تسمح دولة إسرائيل للاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى مدنهم وقراهم. ومن حقّنا أن نتساءل بالتالي: **ماذا يُقال عن سياسة لا تفسح المجال لعودة اللاجئين سوى أنها سياسة طرد وتهجير؟**».

وفي عام ١٩٨٨، نشر بني موريس في الدورية اليهودية الأمريكية **تيكون *Tikkun*** مقالاً أطلق فيه على الأبحاث التي يقوم بها أمثال آفي شلايم وإيلان پاپيه اسم **«التاريخ الجديد»**. وهكذا ترجع إليه قبل سواه أبوّة هذه التسمية التي شاعت وذاعت بعد ذلك. فهو الذي تحدث عن "**المؤرِّخين الجدد**" في مقابل "المؤرخين القدامى»، وعن «التاريخ الجديد» في مقابل «التاريخ القديم»، **ذلك التاريخ الإسرائيلي الذي وصفه بأنه مزيف ودعائي وكاذب في معظم الأحيان**. وعلى أثر ذلك، انطلقت في عام ١٩٨٩ الحملة الأكاديمية العاصفة على ذلك التاريخ القديم. على أنها بلغت أوج تفجّرها بعد بضع سنوات، حيث تصدى أعداء "المؤرِّخين الجُدد" لأفكار هؤلاء واتهموهم بأنهم يبثّون عن طريقها ما يخدم الدعاية الفلسطينية والعربية. وقد أجاب بني موريس على اتهاماتهم بقوله متهكماً: «ذلك أننا نثبت بأفكارنا أن الملك نصف عار!».

وعلى الرغم من أن بني موريس يؤكّد بأن **«تاريخه الجديد» لم يغيّر من موقفه المؤيد للصهيونية**، فقد دفع ثمن مبادرته غالياً: فلقد فصل عام ١٩٩١ عن عمله في الجريدة اليومية *Jerusalem Post* الصادرة بالإنجليزية وبقي عاطلاً عن العمل منذ ذلك الحين حتى كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٩٧، وعُيِّن بعد ذلك أستاذاً في جامعة بن غوريون في بئر السبع. وقد أنجز مؤخراً كتاباً عن التاريخ العام للصراع العربي ـ الإسرائيلي منذ عام ١٨٨١ وحتى اليوم، نُشر هذا العام (١٩٩٩) في آن واحد في ألمانيا والولايات

المتحدة. وفي هذا الكتاب يتحدث عن محاولات الإسرائيليين، خلال الحروب التي تلت حرب عام ١٩٤٨، ولا سيما خلال حرب الخامس من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧، من أجل تهديم مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وإبعاد سكانها عن الحدود. ويعلّق على هذا قائلاً: «**إن في الصهيونية سياسة ترحيل (ترانسفير) يطمسها وينكرها مؤرِّخو الدولة الرسميون ومن لفّ لفّهم**. ومنذ أيام هرتزل طغت هذه النزعة على السطح في مناسبات عدّة: في الثلاثينيات، وفي عام ١٩٦٧، وعند غزو لبنان عام ١٩٨٢... وفي كتابي الجديد، أبرزت هذه السمة المميزة للصهيونية، وهي سمة أراها هامة لمن يريد أن يفهم حقيقة الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، دون أن تكون مع ذلك ـ كما قُلنا ونقول ـ ضرباً من الخطة الرائدة أو سياسة رسمية معلنة. إنها بعدٌ قائم في الصهيونية، ولدى زعماء الصهيونية، وفي أفعال الصهيونية، من دون أن تصبح مع ذلك سياسة صهيونية شاملة. والحق أن حرص الصهيونية على تجميل صورتها جعلها في معظم الأحيان تضبط وتحتوي بعض الشيء ما لديها من إرادة القتل والتدمير والطرد».

٥ ـ ٣ ـ إيلان بابيه[١٧] و«ما بعد الصهيونية»:

على عكس بني موريس، لا يخفي إيلان بابيه أنه كان يضمر قبل أن يبدأ أبحاثه فهماً محدداً للصراع العربي ـ الإسرائيلي. ومصدر هذا الفهم ـ كما يبيِّن ـ العلاقات الشخصية التي أقامها ونمّاها تدريجياً مع المثقفين الفلسطينيين في دولة إسرائيل وفي الأراضي المحتلة، بل حتى في بريطانيا إبان إعداده لرسالة الدكتوراه. وفي هذا يقول: «لقد تعلمت من هؤلاء وجهة النظر الفلسطينية حول أحداث حرب ١٩٤٨. وبعد ذلك فتشت عن البراهين التي تؤيد شكواهم واتهاماتهم في الوثائق والأرشيفات. وقد أكّد عملي هذا شرعية بعض شكاواهم واتهاماتهم».

لقد ظل إيلان بابيه، حتى عام ١٩٧٩، يعتبر نفسه سياسياً من حزب "المابام" بوصفه حزباً صهيونياً اشتراكياً. وكان ينعت نفسه بأنه صهيوني. غير أنه ـ كما يقول ـ قد تطور بعد ذلك بفضل الأبحاث التي قام بها، **وأصبح يعتبر نفسه غير صهيوني**. بل إنه منذ حوالى عشر سنوات أصبح عضواً في جبهة «حداش» (جبهة السلام والمساواة) التي تنتسب إلى الشيوعية. وهو يرى ـ خلافاً لوجهة النظر الفلسطينية الشائعة التي تعتبر الصهيونية ظاهرة استعمارية ـ أن للصهيونية أيضاً بُعداً قومياً، وأنها ـ وإن تكن قد عبّرت عن نفسها على النمط الاستعماري ـ حركة قومية أفادت من استخدام مفاهيم وعادات استوردتها من النزعة الاستعمارية.

ولا يتفق بابيه مع بني موريس حين يؤكد هذا الأخير أن الوثائق العربية حول حرب ١٩٤٨ وما تلاها غير متوافرة، وأنه لذلك لم يرجع إليها في أبحاثه. فهنالك ـ كما يقول بابيه ـ وثائق الهيئة العربية العليا التي تضمها الوثائق القومية لدولة إسرائيل. وهنالك الوثائق التي خلّفها المفتي الحاج أمين الحسيني والمبعثرة بين بيروت ومنظمة التحرير الفلسطينية والقدس. وهنالك ملفات جامعة الدول العربية، وسواها كثير. ويرى بابيه بالإضافة إلى

ذلك أن من غير الجائز إهمال التاريخ الشفوي الذي يرويه الفلسطينيون.

ولقد كان أول كتاب أصدره بابيه في هذا المجال كتابه الشهير: **بريطانيا والصراع العربي ـ الإسرائيلي ١٩٤٨ ـ ١٩٥١** (وقد صدر في لندن عام ١٩٨٨). وقد اعتبرته السلطة الأكاديمية الرسمية آنذاك عملاً مشروعاً. وقد أتاح له ذلك الحصول على منصب أستاذ محاضر في جامعة حيفا. غير أن الأمور ساءت بعد نشر كتابه الثاني: **صناعة الصراع العربي ـ الإسرائيلي ١٩٤٧ ـ ١٩٥١** (وقد نشره في لندن عام ١٩٩٢)[١٨]. ذلك أنه يعارض فيه وجهة نظر بني موريس الذي يرى ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أنه لم تكن لدى الصهاينة وإسرائيل خطة مسبقة لطرد الفلسطينيين. ويرى بابيه بالتالي ـ خلافاً لبني موريس ـ أن **زعماء المستوطنين اليهود في فلسطين** ـ قبل خلق دولة إسرائيل ـ **قد وضعوا خطة للقيام بطرد عرب البلاد المقيمين فيها طرداً منهجياً منظماً من الأراضي التي سوف يحتلها اليهود**. وقد كان رد الفعل على أقواله هذه غاضباً إلى حدٍ جعلٍ من العسير عليه ـ كما يصرّح بذلك ـ «أن يجد ناشراً يقبل نشر كتابه باللغة العبرية»، فضلاً عن أن ترقيته الجامعية أوقفت بدعوى أن كتابه كان كتاباً دعائياً وليس أكاديمياً. ولا ينكر بابيه هذا النقد، لأن سائر الإسرائيليين في رأيه، ممن يتصدّون لكتابة التاريخ المعاصر لدولتهم، إنما يكتبون في الواقع تاريخاً ذا أغراض إيديولوجية. وكل ما في الأمر ـ كما يقول ـ أن بعضهم يعترف بذلك بينما ينكره بعضهم الآخر، وهم لا شك خاطئون في ذلك الإنكار. ويضيف إلى هذا: «**لا يزعجني أن ينعتني بعضهم بأنني من أنصار "ما بعد الصهيونية"**. ذلك أننا جميعاً كذلك في الواقع، شأننا شأن سائر مظاهر وأحداث المجتمع الإسرائيلي.. وليس في هذا الوصف (وصف "ما بعد الصهيونية") في الحقيقة معنىً مرذولاً. صحيح أن نظرتي الناقدة جداً للصهيونية ولماضيها، وتطلّعي إلى أن يغدو المجتمع الإسرائيلي مجتمعاً أكثر عدالة، أمور تؤثّر في فهمي لتاريخ البلد. ولكن من غير الجائز أن نضع في جعبة واحدة "المؤرّخين الجدد" جميعهم على اختلاف بلدانهم (مشيراً بذلك بوجه خاص إلى مؤرخي النازية الجُدد)».

٥ ـ ٤ ـ شاباطاي تيفث ونقد "المؤرخين الجدد":

والحق أن النقد الذي تعرّض له "المؤرخون الجدد" في إسرائيل منذ حوالى عشر سنوات والذي تحدثنا منذ قليل عن طرف منه، لم ينطفىء لهيبه مع الزمن، بل اشتد أواره على العكس، ولا يزال يشغل الباحثين في شتى الميادين، ولا سيما في التاريخ والعلوم الاجتماعية والعلوم السياسية. ولا تزال الصحافة تخصّه بمقالات واسعة ومتكاثرة. ولا تقتصر المعركة على أحداث حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، بل تتسع لتشمل جوهر الصهيونية نفسها، كما سبق أن رأينا، والصراع العربي ـ الإسرائيلي، والهزّات السياسية والاجتماعية والخلقية التي كثيراً ما تعصف بالمجتمع الإسرائيلي. **ويرى بعض الإسرائيليين أن "المؤرخين الجُدد" هؤلاء ليسوا سوى طابور خامس فلسطيني أو عربي**. أما خارج

إسرائيل، فإنهم ـ على العكس ـ يمثّلون، في نظر فئة كبيرة، إسرائيل أصدق مع نفسها، وأشد حيوية، ولا تخشى النقد الذاتي بصوت عال وفي الهواء الطلق.

ومن المؤرخين الذين يجدر التريث عندهم في عداد الناقدين لـ"المؤرّخين الجدد"، المؤرّخ **شباطاي تيفث** الذي يقف من هؤلاء المؤرخين، وعلى رأسهم بني موريس، موقفاً نقدياً يمكن أن نسميه معتدلاً، لا سيما أنه يُعدّ منهم. فهو يأخذ على بني موريس وزملائه منازعهم السياسية، وأنهم حاولوا بأي ثمن أن يبرهنوا على أن بن غوريون كان يهدف إلى طرد العرب و«ترحيلهم». **بينما يرى هو أن البريطانيين، عام ١٩٣٦، هم الذين اقترحوا ـ عن طريق «لجنة بيل»** Peel ـ ترحيل الفلسطينيين. ومن عجائب ما يجيب به عندما يُسأل عن الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل ضد الفلسطينيين، قوله: «إنني أقر وأعترف بأننا (يعني الإسرائيليين) ارتكبنا ظلامات ضد العرب. وإنني أدين تلك الظلامات. ولكنني أضيف بأن الظلامات تُرتكب في كل الحروب. صحيح أننا اجترحنا خلال حرب عام ١٩٤٨ ضروباً من العنف مذهلة، ولكننا لم نفعل ذلك لأننا كنا نتمناه، بل لأن أي حرب تولّد العنف والخسف»، ولأن الحرب أمُّ الآثام والكبائر. ومن هنا يأخذ على "المؤرّخين الجدد" بأنهم، بوجهات نظرهم، وبقولهم بوجه خاص **بأن إسرائيل ولدت في قلب الخطيئة**، يشكّكون في شرعية دولة إسرائيل نفسها. فإن صحّ أن إسرائيل ولدت من رحم الخطيئة، وذلك بارتكابها الظلامات ضد الآخرين، فهذا يعني أنها لا يحق لها البقاء. وهو يقول هذا ويتساءل تساؤلاً إنكارياً، وكأنه لا يعلم أن الحقيقة صارخة ولا تحتمل الجدل، نعني حقيقة قيام الكيان الإسرائيلي من خلال تهديم الوجود الفلسطيني أرضاً وإنساناً ووطناً، تحقيقاً لخرافة طالما أصمّت مسامع اليهود والعالم، خرافة «أرض إسرائيل» المزعومة. أولم ينقل باروخ كميرلنغ عن حاييم وايزمن، أول رئيس لدولة إسرائيل، قوله بالحرف الواحد: **«إن معجزة عام ١٩٤٨ الحقيقية لم تكن انتصار اليهود في الحرب، بل "تطهير" البلد من العرب»**! ومن هنا يدافع كميرلنغ (وهو أستاذ في جامعة القدس وعالم اجتماع معروف) عن "المؤرخين الجدد" ويهاجم خصومهم بقسوة قائلاً: «إن المؤرخين وعلماء الاجتماع وسائر أولئك الذين يفعلون ما يُملى عليهم ـ أعني أن يقدموا للشعب تاريخاً منقوصاً ومفبركاً ومشوّهاً ومبنياً على الخرافاتت والأساطير... ـ إنما يسيئون إلى وظائفهم العلمية كما يسيئون إلى وظائفهم الاجتماعية أو الفكرية...».

٥ ـ ٥ ـ ناقدو "المؤرخين الجدد" من العرب وسواهم:

لئن كان نقد تيفث لـ"المؤرخين الجدد" وبني موريس بوجه خاص نقداً معتدلاً بعض الشيء، ينطلق من منطق "المؤرخين الجدد" أنفسهم (وهو منهم إلى حدّ ما)، فلقد واجه هؤلاء المؤرّخون من النقد ما هو أدهى وأمرّ، ولا سيما من قبل المؤرخين وعلماء الاجتماع

والباحثين العرب. ومن أبرز الذين تصدّوا لنقدهم عالم الاجتماع الفلسطيني المعروف إبراهيم أبو لغد، الذي وجّه مآخذ أساسية إلى بني موريس بوجه خاص. فهو يأخذ عليه أنه لم يستخلص من حديثه عن طرد الفلسطينيين وهدم مساكنهم واغتصاب أراضيهم النتيجة المنطقية التي ينبغي أن يستخلصها، وهي **أن هذا كله جزء لا يتجزأ من الصهيونية، ومقوّم جوهري من مقوّماتها**. ويرى أبو لغد أن بني موريس يقدم تفسيراً يسيراً لحدث ضخم، حين يفصل بين هذا الحدث وبين تاريخ الصهيونية وجوهرها الأساسي. وطرد العرب ـ كما يرى أبو لغد ـ بدأ في حقيقة الأمر في أول يوم اشترى فيه أول صهيوني أرضاً عربية في فلسطين، أي قبل أن يظهر دافيد بن غوريون على المسرح السياسي بوقت طويل. وعندما امتلك الصهاينة الأراضي الواقعة في منطقة مرج ابن عامر، طردوا جميع الفلاحين الفلسطينيين الذين كانوا يعملون فيها. وتفسير طرد السكان العرب من اللّد والرملة لا يحتاج ـ كما يقول أبو لغد ـ إلى البحث والتنقيب عن وثيقة يُصدر فيها القائد الأعلى للقوات الإسرائيلية أوامره الصريحة بهذا الشأن. إذ كل ما في الأمر هو أن "المؤرخين الجدد" ـ كما يقول أبو لغد ـ شأنهم في ذلك شأن السلطة الحاكمة الإسرائيلية ـ يرفضون الاعتراف **بأن الرحيل القسري للفلسطينيين هو جزء لا يتجزأ من الصهيونية ومنطلقاتها البديئة**. (١٩).

أما السلطة الإسرائيلية الرسمية فقد كان موقفها في البداية من "المؤرخين الجدد" مجرد الازدراء. ولكن عندما اتسع الجدال حولهم، اضطرت هذه السلطة إلى أن تأخذهم مأخذ الجد. ومنذ مدة قريبة، خصّهم بهجاء لاذع المركز المعروف باسم «مركز موشي دايان لدراسات الشرق الأوسط وأفريقيا» التابع لجامعة تل أبيب. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٧، عرض إيلان پاپيه أفكاره على جمهور خاص من المستمعين، هم طلاب «معهد الأمن القومي» الذين يضمون ضباطاً كباراً في الجيش والشرطة ودوائر الأمن الإسرائيلية الأخرى. وكان هؤلاء الطلاب هم الذين بادروا إلى دعوته، لحرصهم على أن يستمعوا لأحد ممثلي "المؤرّخين الجدد". ويصف پاپيه ما جرى قائلاً: «لئن لم يجرؤ أحد من السامعين على تأييد أفكاري، فإن ردود الفعل حولها قد كانت متباينة. فبعضهم قال لي: إن نقد الصهيونية لن يؤدي إلا إلى تعزيز مفهومنا للصهيونية. ولذلك فبدلاً من أن يسكتوك، عليهم على العكس من ذلك أن ييسّروا لك فرصة التعبير عن أفكارك».

وإذا تجاوزنا المنظور السياسي إلى المنظور الأكاديمي، **نرى كذلك أن "المؤرّخين الجدد" أصبحوا في نظر السلطة كبش الفداء**. ومن أجل الازدراء بهم يُنعتون بأنهم ينتمون إلى **«ما بعد الصهيونية»**. ولكن هذا النعت لم يعد في التسعينيات، وبعد مرور نيف وخمسين عاماً على إنشاء إسرائيل، نعتاً مرذولاً من قبل الكثير من أبناء إسرائيل الذين اهتزّ لديهم إيمانهم بالصهيونية وأخذوا يحلمون بعهد جديد تغدو فيه إسرائيل دولة كسائر الدول الديمقراطية في العالم.

والحق أن نعت «**ما بعد الصهيونية**» نعت ظهر عام ١٩٩٣، لدى "المؤرّخين الجدد" ولدى الباحثين في ميادين أخرى، أبرزها العلوم الاجتماعية، ولدى شخصيات وجماعات كانوا يتساءلون عن بعض المعتقدات والقناعات الصهيونية في مختلف الميادين. وقد بدأ هؤلاء يشعرون، بعد مرور أعوام طويلة على قيام دولة إسرائيل التي تكاد تصبح قوة عظمى في المنطقة، **أن الصهيونية التقليدية المألوفة قد عفّىٰ عليها الزمن**، وأن الأوان قد آن لولادة «ما بعد الصهيونية». وهذه النزعة الجديدة تتخذ صوراً وأشكالاً متباينة. ولكن جوهرها يتحلّق حول مطلب أساسي، ألا وهو جعل إسرائيل دولة عادية. وهذا يعني «تطبيعها» خارج إسرائيل مع الفلسطينيين ومع الدول العربية، و«تطبيعها» في الداخل أيضاً عن طريق تحويل الدولة اليهودية إلى دولة لسائر مواطنيها. فلطالما أرادت إسرائيل أو ادّعت أنها تريد أن تكون دولةً ليهود العالمِ كلهم. غير أن ثلثهم فقط هاجر إلى إسرائيل، بينما فضّل الباقون البقاء حيث هم. وبدلاً من أن تنتظر إسرائيل إلى الأبد ـ كما يقول أنصار «ما بعد الصهيونية» ـ عزمَ جميع يهود الشتات على العودة وعلى الهجرة، يحسن بها أن تجعل من إسرائيل دولة عادية، تعيش في سلام مع ذاتها ومع جيرانها.

ولا بد من القول إن «ما بعد الصهيونية» هذه لا يأبه بها "المعادون للصهيونية» Anti-sionistes، كما لا يأبه بها من لا يعنيهم أمر الصهيونية سلباً أو إيجاباً A-sionistes. وهي تعني فقط بالتالي الصهاينة الذين اكتشفوا أن الصهيونية ـ في مرحلة معينة من تاريخ إسرائيل (حرب ١٩٤٨، وإعلان دولة إسرائيل، وحرب الأيام الستة في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وحرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، وحتى بعد «اتفاق أوسلو») ـ لم تعد جزءاً لا يتجزأ من وجود إسرائيل ومصالحها وحاجاتها. وبعض هؤلاء يرى أن الصهيونية لم تعد تمثّل قضية عادلة، ولم تعد في خدمة مبدأ سليم. وهم يرون أن محاولة جمع يهود الشتات جميعهم، و«قانون العودة» و«الأراضي العربية المحتلة»، أمورٌ قد فقدت أهميتها الحيوية. وبقولٍ موجز، ثمة جانب من الشعب الإسرائيلي يرى أن الصهيونية أصبحت مجرد تاريخ، بل مجرد تاريخ مضى وانقضى، وأنها حققت رسالتها وأكملت غاياتها.

٦ ـ خاتمة حول الصراع بين اليهودية والصهيونية وحركة "المؤرّخين الجدد":

ومن العسير في هذه العجالة أن نستنفد الحديث عن هؤلاء "المؤرّخين الجدد" ومن والاهم من الأدباء وعلماء الاجتماع وسواهم. وجلّ ما أردنا من هذا العرض الخاطف المنقوص، أن نكشف عن النقاش القائم اليوم في قلب المجتمع الإسرائيلي حول الصهيونية، وأن نبيّن كيف تستمر الصهيونية، منذ ولادتها حتى اليوم، في معاداتها للشعب اليهودي، وكيف تستمر معاداة الشعب اليهودي لها، ولكن في إهاب جديد وفي صور جديدة يطرحها انقلاب الحركة الصهيونية دولةً تثير في ممارستها تساؤلات عميقة لدى أبناء

الشعب اليهودي في داخل إسرائيل وفي الشتات. والحق أن إعادة التفكير في تاريخ إسرائيل تعني - بالنسبة إلى اليهود - **إعادة صياغة المجتمع الإسرائيلي**، بل وضعه كله موضع التساؤل والشك، كما رأينا عبر حديثنا. والصراع حول تاريخ إسرائيل ليس مجرد صراع علمي، بل هو سجال حول مستقبل الصهيونية يمسّ أعمق أسس الدولة، ويطرح السؤال الكبير: **هل ينبغي على إسرائيل، وهل تستطيع، أن تكون دولة كسائر الدول في العالم؟**

ومن هنا، فالجدال حول "المؤرّخين الجدد" الذي يستعر أواره حالياً، هو في الواقع جدال سياسي حول ما يجري اليوم وما سيجري في الغد. وإذا كان من غير الممكن وضع صيغة موحدة للصهيونية في إسرائيل - على نحو ما رأينا - فإن ذلك يعني وجود أزمة هوية عميقة فيها. ولهذا سوف نطرح فيما يلي مستقبل دولة إسرائيل من خلال واقع التمزق الذي تعاني منه. وسوف نحاول في هذا الطرح أن نفيد أولاً من الدروس التي تقدّمها لنا نشأة الصهيونية وصراعاتها - كما رأينا في الفصول الأولى من كتابنا - وأن نعمّق ثانياً فهم الواقع الإسرائيلي اليوم من خلال ما اتينا عليه من حديث مقتضب عن الصراع حول تاريخ إسرائيل الذي يعني في أعماقه - كما قلنا - الصراع حول هويتها ومستقبلها.

ولما كان الصراع حول الصهيونية، بالأمس واليوم، يتلوّن بلون نظرة الفئات المتصارعة إلى الدين، واستكمالاً لما كنا بدأنا به من حديث عن الصراع بين الصهيونية عند ولادتها وبين المذاهب الدينية، سنحاول في الفصول التالية والأخيرة من كتابنا أن نجعل محورها الأساسي واقع الهوية في إسرائيل اليوم ومستقبلها ومستقبل إسرائيل من خلالها، وذلك انطلاقاً من تحليلنا لبنية الواقع الإسرائيلي من حيث علاقته بالدين والصهيونية.

ولا شك أن أهم نتائج دراسات "المؤرّخين الجدد" اهتزاز صورة إسرائيل في الغرب. فمعظم أبناء الغرب كانوا يحملون - قبل ذلك - صورة مثالية عن إسرائيل، ظناً منهم - بتأثير الدعاوة الصهيونية - أن الأرض الفلسطينية كانت أرضا صحراوية خاوية على عروشها، لا يقطنها إلاّ عدد قليل من البدو. وقد عاد إليها في ظنهم بعد ألفي عام أناسٌ غابوا عنها طويلاً، فخلقوا من الصحراء جنة من أعناب ونخيل، وأنجزوا فيها بالتالي معجزة جديرة بالإعجاب! ولم يكن معظم أبناء الغرب هؤلاء على دراية بما مارسه الصهاينة - يوم أقاموا الكيان الإسرائيلي - من عسف وعنف وتشريد وسلب للأراضي وطرد لسكانها. وهكذا فتحت دراسات "المؤرخين الجدد" أعين الكثير منهم على الحقيقة، الأمر الذي أدّى إلى تحطيم صورة إسرائيل التي كانت في أذهانهم.

ولعلّ ما جرى خلال المؤتمر الأخير للّوبي الصهيوني الأمريكي المعروف باسم «إيباك» AIPACالذي عُقد في مطلع شهر حزيران/ يونيو ١٩٩٩، مؤشر على ما يحدث في الرأي العام الغربي، بل حتى في الأوساط الأمريكية اليهودية، من تغيّر في النظرة إلى مخلفات الصهيونية في إسرائيل، وهو تغيّر جدير بأن يجيد العرب الإفادة منه وتعزيزه.

الفصل السادس

المواقف الدينية وواقع مسألة الهوية في إسرائيل اليوم

كما سبق أن قلنا، كيما ندرس واقع الهوية في إسرائيل حاضراً ومستقبلاً ومستقبل إسرائيل بالتالي كما يراه الإسرائيليون أنفسهم، لا بد أن ننظر في الواقع الإسرائيلي اليوم من حيث علاقته بالدين والصهيونية. فهذا الموقف من الدين هو الذي يحدّد ـ إلى حد كبير ـ الموقف من الهوية.

١ ـ الاتجاهات السائدة في إسرائيل من حيث الموقف من الدين:

نستطيع أن نقسم شعب إسرائيل اليوم، فيما يتصل بموقفه من الدين، إلى زمر أربع واضحة المعالم:

أ ـ فنصف الإسرائيليين تقريباً يعتبرون أنفسهم **«علمانيين»** Hilonin. وهذا لا يعني أنهم لا ينفذون أياً من تعاليم الدين. ويتوزع هذا الجمهور العلماني على مدن إسرائيل كلها، ولكنه يمثل الأغلبية في عدد من المدن الكبرى (تل أبيب ـ حيفا ـ رامات غان). **وهذا الجمهور العلماني، سواء أكان من اليسار أم اليمين، يودّ أن تتخلص إسرائيل من ربقة الدين، ومن الخلط بين الدين والسياسة على نحو ما هي عليه في الواقع القائم.**

ب ـ وهنالك ثانياً ٣٠٪ إلى ٣٥٪ من الإسرائيليين ـ ولا سيما الذين قدموا من البلاد العربية ـ يعتبرون أنفسهم **يهوداً تقليديين**، أي أنهم يتمسّكون بعدد من الأوامر الدينية، بسبب الألفة والعادة، من دون أن يشعروا تجاهها بالتزام مطلق. ومن هنا لا يعتبرون أنفسهم متدينين «أرثوذكسيين» بالمعنى الكامل للكلمة. وتعلّقهم بالتقاليد اليهودية لا يتجاوز الطقوس الظاهرية، ويتجلّى بوجه خاص في مجيئهم إلى الكنيس أيام السبت والأعياد، وهم يتقيّدون بوجه عام بالقواعد الدينية في الطعام (الكاشروت). غير أنهم في الجوانب الأخرى من سلوكهم أقرب إلى العلمانيين. ويشتدّ هذا القرب لدى الجيل الثاني منهم.

ج ـ وهنالك ثالثاً حوالى ١٥٪ إلى ٢٠٪ من الإسرائيليين ممن يعتبرون أنفسهم **«صهاينة متدينين»**. ولهؤلاء هويتهم المتميّزة الواضحة والصارخة. ويتعارفون فيما بينهم ـ أو

يتعارف الرجال منهم - عن طريق ارتدائهم «القلنسوة المجدولة». وتتحلّق حياتهم الاجتماعية حول أمرين: أولهما الاستمساك الدقيق الصارم بالأوامر الدينية، وتمحور حياتهم الاجتماعية كلها حول الكنيس. وهذا الاستمساك بقواعد الدين يزداد قوةً وحدّةً لدى الأجيال الشابة. أما المحور الثاني لحياتهم الاجتماعية فمحور سياسي. إذ يميّزهم تبنّيهم للشعارات اليمينية القومية المتطرفة وتأكيدهم على ضرورة ضمّ سائر الأراضي التي تنتسب إلى «أرض إسرائيل» كما يدّعون. ويمثّل هذا الاتجاه الثالث بالدرجة الأولى «الحزب القومي الديني» (المفدال)، وحركة الشبيبة المعروفة باسم حركة «بني آكيفا» Bne' Akiva، ويتعاطفون أيضاً مع حركة «غوش أيمونيم» (كتلة الإيمان) ومع أصحاب المستوطنات.

د - وأخيراً - وليس آخراً - هنالك الفريق الرابع، فريق **«الأرثوذكسيين الغُلاة»** Ultra Orthodoxe الذين يلبسون السواد، والذين يمثّلهم بشكل خاص حزب «أغودات إسرائيل»، وحزب «ديغل هتوراه»، وحزب «شاس»، وحزب "المفدال". وغلاة المتدينين هؤلاء يمثّلون حوالى ٥٪ من سكان إسرائيل، وعددهم في تزايد مستمر بسبب التكاثر السكاني الكبير عندهم من جانب، وبسبب عودة بعض الشبان العلمانيين إلى الدين. وأكثر الفئات نشاطاً وديناميكية لدى هذه الفئة هم أعضاء «شاس»، ذلك الحزب الأرثوذكسي المُغالي (الذي يمثّل الحريديم - لابسي السواد - من اليهود السفارديم). وهو حزب أصاب نجاحاً في تحقيق اختراق حقيقي في بعض الأوساط. وبفضل مشاركة هذا الحزب في جميع الحكومات الإسرائيلية خلال السنوات الخمس عشرة الماضية، استطاع أن يحصل من خزينة الدولة على مبالغ طائلة، أتاحت له أن ينشىء عدداً كبيراً من المؤسّسات المختلفة: كرياض الأطفال، والمدارس، والثانويات، والنوادي الخيرية... إلخ، وحتى مخازن المواد الغذائية. وهو الحركة الوحيدة التي تقدّم للآباء المعوزين وسائل لنقل أبنائهم إلى المدارس، فضلاً عن الطعام واللباس. وبذلك نجح هذا الحزب في توسيع قاعدته حتى في الأوساط المتدينة التقليدية، بل حتى في الأوساط العلمانية! وبعد أن كان له أربعة نواب في البداية، أصبح له في انتخابات عام ١٩٩٦ عشرة نواب، وحصل على سبعة مقاعد أخرى في الانتخابات التي جرت بتاريخ ١٧/٥/١٩٩٩. وهكذا تزايد عدد أعضاء الكنيست «الأصوليين»، أي ممثلي الأحزاب الدينية المتزمتة التي أشرنا إليها، تزايداً مطرداً في السنوات الأخيرة. فبعد أن كان لهم ١٦ عضواً في انتخابات عام ١٩٩٢ (من أصل ١٣٠ عضواً) بلغ عدد أعضائهم في انتخابات عام ١٩٩٦ ثلاثة وعشرين عضواً، وفي الانتخابات الأخيرة سبعة وعشرين عضواً (١٧ لشاس، و٥ للمفدال، و٥ ليهودت هتوراه).

والأطروحات الأساسية لهذه «الأصولية»، على نحو ما يلخّصها الدكتور عبد الوهاب المسيري في البحث الذي قدّمه إلى ندوة «العرب ومواجهة إسرائيل» التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت (٢٨/١١ ـ ١/١٢/١٩٩٨) وعنوانه «الإمكانات الإيديولوجية الصهيونية» هي الآتية:

١ ـ «إنشاء دولة إسرائيل هو تجسيد للحلم التوراتي اليهودي القديم، رغم أن الحركة الصهيونية نفسها، المؤسّسة للكيان الصهيوني، لم تكن حركة دينية، وإنما كانت إيديولوجية سياسية علمانية، ورغم أن الآباء المؤسّسين (الحرس القديم) مثل بن غوريون وإيغال آلون، كانوا ملحدين في حياتهم، علمانيين في طُرُق تفكيرهم. ويسمى كوك هذه الظاهرة (وعد ديني يتحقّق على يد علمانيين) «الإنشطارية». ولذا بينما يرفض الأصوليون هذا الطابع العلماني للدولة، فإنهم يقبلون بفكرة الدولة اليهودية نفسها (على عكس «ناطوري كارتا» التي ترفض فكرة الدولة من أساسها)».

٢ ـ «لا يمكن الثقة بالأغيار بأي شكل، و«أرض إسرائيل» الكبرى هي أرض يهودية، ولا بد للدولة اليهودية أن تعتمد على نفسها وحسب (رغم كل المساعدات الخارجية التي تصبّ فيها). ولذا لا يفهم أعضاء هذا اليمين الديني التوازنات الدولية حقّ الفهم. وهم لا يتصوّرون أنه يُمكن عقد سلام مع العرب، بل يجب طردهم أو تهجيرهم. لذا نجد أن الأغلبية الساحقة لهؤلاء المستوطنين من أصحاب الديباجات الدينية يقفون ضد أي تنازل عن «الأرض اليهودية».

«وهذه المقولات ليست بالضرورة مقولات دينية، ويمكن لأي حزب علماني أن يتبناها. وبالفعل نجد أن اليمين (المؤيد لنتنياهو وشارون) يضمّ في صفوفه متدينين قوميين وعلمانيين. فهو يضم أحزاباً دينية مثل حزب المفدال وشاس وديغل هاتوراه، ولكنه يضمّ أيضاً أحزاباً مثل موليدات وإسرائيل بعالياه وتسوميت. وحزب إسرائيل بعالياه هو حزب الصهاينة المرتزقة، أي المهاجرين السوفييت الراغبين في تحسين مستواهم المعيشي. أما حزب تسوميت، فهو حزب صهيوني لاديني. ولا يمكن الحديث عن نتنياهو أو عن جيله بأسره، باعتباره متديناً».

٢ ـ الصراع حول الهوية بين الاتجاهات السائدة في إسرائيل:

في داخل كل من هذه الفئات الأربع (العلمانيين ـ والتقليديين ـ والمتدينين الصهيونيين القوميين ـ والأرثوذكسيين الغُلاة) حدث في السنوات الأخيرة تطوّر فيما يتصل بمفهوم الهوية، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرة كل منها إلى تاريخ الشعب اليهودي وتاريخ دولة إسرائيل. ولما كان التقليديون يشكّلون أقلية تتناقص يوماً بعد يوم نسبتها إلى جملة السكان، ولما كان غلاة الأرثوذكسيين لا يعنيهم إلاّ موضوع اليهودية ويكتفون بالنظر إلى الدولة نظرتهم إلى مجرد أداة ووسيلة، فإن في وسعنا أن نقتصر في حديثنا عن مستقبل الهوية الإسرائيلية ـ وهو

ضالة بحثنا ـ على فئتين من هذه الفئات الأربع، تتنازعان بشكل بيِّن هوية إسرائيل في الغد: **فئة العلمانيين** من جانب، **وفئة الصهاينة المتدينين** من جانب آخر.

٢ ـ ١ ـ الهوية العلمانية:

في إطار الهوية العلمانية (أو «ما بعد الصهيونية» كما جرى على ألسن بعض الكتّاب) ظهر "المؤرِّخون الجدد" الذين تحدّثنا عنهم، والذين حاولوا ـ كما رأينا ـ أن يجرحوا التاريخ التقليدي الرسمي والأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل. ذلك أنهم يرون أن التاريخ الصهيوني المؤدلج كان هو العقبة الأساسية في طريق ولادة «مجتمع مدني» في إسرائيل.

وفي وسعنا، من أجل الحديث عن الهوية العلمانية التي تبدأ بالتكوّن، أن ننطلق من كتاب ظهر حديثاً ولقي رواجاً كبيراً نعني به كتاب **السأم الإسرائيلي** *(Tougat Hasraéliout)* من وضع الكاتب والصحافي دورون روزنبلوم Doron Rosenblum. وهو كتاب يبدأ بالمطلع الآتي: «ذات صباح، استيقظ الكاتب "ك" من نومه فاكتشف أنه كان في الوحل والانحلال الكامل». على هذا النحو يُعبِّر الكاتب والصحافي في أكبر صحيفة إسرائيلية علمانية وليبرالية، هي صحيفة **هآرتس**، عن حقده على أي تنظيم أو إطار جماعي في المجتمع الإسرائيلي، وعلى أي شكل من أشكال «الإسرائيلية اللزّجة أو المتصلّبة». وقد صفق لكتابه العديد من الإسرائيليين المتنورين، ولا سيما في تل أبيب، واستُقبل بحفاوة لدى أولئك الذين يرتادون عالم المقاهي واللهو. ذلك أنه يعبّر في ذلك الكتاب عن مشاعر سائر الإسرائيليين العلمانيين، ولا سيما مفكّري اليسار في المدن الكبرى. وهو فيه ينطق باسم جميع أولئك الذين يتوقون إلى أن يتنفسوا، إلى أن يهجروا التاريخ المقدس، إلى أن يستمتعوا بالإجازات.. أولئك الذين تعبوا من الشعارات الصهيونية، ومن البطولة، ومن القيادة والريادة.. أولئك الذين سئموا من رجال الدين، وتعاليم الطعام الدينية، والشوارع المغلقة أيام السبت، ومعجزات الحاخامات الذين يجودون ببركتهم.. أولئك الذين ضاقوا ذرعاً بعبادة إسرائيل وأرض إسرائيل وجيش إسرائيل والتضحية من أجل إسرائيل.

ومن الهامّ أن نذكر أن جمهور العلمانيين هذا ـ باستثناء القليل من المثقفين من بينهم ـ ليس ضد الصهيونية، ولا ينكر الدور الذي كان للصهيونية في نشأة إسرائيل. غير أن هذه الإيديولوجية في نظرهم قد أدّت مهمتها مشكورة. وفي الذكرى الخمسين لولادة إسرائيل، **يشعر جميع العلمانيين من الإسرائيليين بأن الصهيونية وتاريخها وأساطيرها أمور تجاوزها الزمن**، وأصبحت الصهيونية بالتالي مجرد موضوع للتاريخ، يدرس في الجامعات أو في منتديات العلم. وهم يأبون بالتالي أن تكون الصهيونية هي الأب والأم لنظرتهم إلى العالم.

ولا ضير عندهم من استقبال اليهود الآتين من الشتات، كيهود الاتحاد السوفياتي أو

سواهم. ولكن عهد تجمّع المنفيين وتحقيق أمن إسرائيل بأي ثمن، والحديث عن أرض الآباء والأجداد... إلخ، عهد قد مضى وانقضى. وكما يقول بني موريس، أبرز وجوه "المؤرّخين الجدد" (وقد سبق لنا أن توقفنا عند بعض آرائه): «إن العملية التاريخية من أجل توطين اليهود على هذه الأرض قد بلغت منتهاها. وقد امتلأت كل "الخانات" الفارغة، وأفرغت "خانات" جديدة وملئت بدورها، والبلد اليوم يضيق بسكانه، ولا مكان فيه لهجرات جديدة»[٢٠].

ولا شك في أن جمهرة العلمانيين هؤلاء يغالون في المنازع الفردية، بل هم مصابون - كما يقول بعضهم - بضربٍ من «الحمى الفردية». غير أن ذلك، إن كان يدلّ على شيء، فهو يدلّ على أن إسرائيل تصبح، على تخوم القرن الحادي والعشرين، مجتمعاً يزداد فيه نمو النزعة الفردية يوماً بعد يوم. وهذه حقيقة مهمّة لا بد أن يأخذها في الحسبان كل من يبحث في مستقبل إسرائيل ومستقبل الهوية الإسرائيلية.

وانطلاقاً من ذلك، يُمكننا أن نطرح السؤال الأساسي الذي يوجّه بحثنا وهو: ما هي تلك الهوية الإسرائيلية «التالية للصهيونية» Postsioniste، التي يحدّثنا عنها العلمانيون والتي أخذنا نشهد معالمها منذ اليوم؟ وجوابنا على هذا السؤال الصعب يُمكن أن نوجزه في النقاط الآتية، معتمدين في ذلك على التحليلات التي صدرت عن بعض الكتّاب الذين عنوا عناية خاصة بالحديث عن "المؤرّخين الجدد"[٢١].

أ - **النقطة الأولى هي أن هوية المستقبل لا بد أن يكون قوامها حرية الفرد (قبل حقوق المجموع)**، وأن يكون رائدها بحث كل إنسان عن سعادته ورغباته الخاصة، بحيث تكون الغلبة - في حال وقوع صراع بين مطالب الفرد ومطالب المجموع - للمطالب الفردية. هذه الأولوية التي تُعطى لكل ما هو فردي، يُمكن أن تبرّر مثلاً رفض الخدمة في الجيش حين تتعارض هذه الخدمة مع مشروع شخصي (كالدراسة أو ممارسة الرياضة، أو العناية بالموهبة الفنية... إلخ). بل يمكن أن تشمل - في خاتمة المطاف - رفض تضحية الفرد بأغلى ما عنده، أي التضحية بحياته أو بسلامته الجسدية في سبيل الدولة. وقد يعني هذا - من قبيل المثال - أن الفرد يُمكن أن يرفض الانخراط في الجيش، من أجل محاربة المقاومة اللبنانية التي تمثّل خطراً كبيراً عليه وتؤدي إلى سقوط ضحايا كثيرة. لا سيما أن الجيش الإسرائيلي لم يعد كما كان في الماضي أيام «الهاغانا» و«البالماخ» وما تلاهما. والروايات الملحمية عن هذا الجيش أفاضت وفاضت وانتهى أمرها. وقد تغيّر كل شيء اليوم، ولعلّ ذلك التغيّر قد بدأ منذ أخطاء حرب الغفران (حرب تشرين ١٩٧٣). والأمثلة على هذا التغيّر غدت عديدة، لا مجال للتوقف عندها، ولعلّ أبرز ما فيها «ضعف الاندفاع» لدى الجيش خلال السنوات الأخيرة، ولا سيما بعد حرب لبنان والانتفاضة الفلسطينية. ومما يشهد على هذا التغيّر أيضاً ما يتمّ في وضح النهار عن طريق وسائل الإعلام المختلفة من فضح لأخطاء

الجيش الإسرائيلي وأجهزة الأمن (الموساد وغيره). وينعكس هذا الاهتزاز في صورة الجيش انعكاساً واضحاً على الأدب والمسرح، منذ حرب الغفران. ألم تذكر صحيفة **يديعوت أحرونوت** أن خير طياري إسرائيل لا يبدون استعداداً لضرب «حزب الله» إلا إذا حصلوا على تأمين على الحياة بمبلغ كبير؟ وإلى جانب الجيش، يكشف عن النزعة الفردية السائدة وعدم الاكتراث بما هو جماعي، ما جرى ويجري في «الكيبوتزات» التي تشهد اليوم انقلابات واضطرابات واسعة، والتي يتعرّض الكثير منها لإفلاس عاجل. أما أسباب ذلك ومظاهره، فلا يتسع لها المقام هنا.

ب ـ والنقطة الثانية التي ينبغي أن نأخذها بعين الاعتبار فيما يتعلق بتطور مفهوم الهوية لدى الجمهور العلماني، **هي أن الهوية العلمانية الإسرائيلية الجديدة تنزع إلى رفض أي تميز نوعي لإسرائيل في هذا المجال،** أي أنها تنزع إلى النظر إلى الهوية الإسرائيلية نظرتها إلى أي هوية أخرى في أي دولة في العالم، سواء بسواء. وهذه النظرة مرتبطة بمفهوم معيّن للتاريخ اليهودي، الذي يجنح بعض المؤرّخين أكثر فأكثر إلى اعتباره تاريخاً عادياً «طبيعياً»، وبالتالي مشابهاً لتاريخ سائر الشعوب. ويشكل هذا الموقف ـ كما نرى ـ ثورة في المفاهيم: فالهوية التي كان آباء الصهيونية يحاولون أن يؤكدوها، كانت هوية قائمة على تميّز التاريخ اليهودي وعلى اعتباره تاريخاً صنعته المآسي والاضطهادات، ومن اللازم بالتالي تصحيحه في الدولة العبرية الجديدة، ولكن دون نسيانه. وهذا ما لا يقبل به الجمهور العلماني: فهو يرى أن الاضطهاد الذي خضع له اليهود يشبه ما عرفته غيره من الشعوب، وأن الصهيونية لا تختلف عن سواها من الحركات الاستعمارية، وأن «المحرقة» ـ أخيراً ـ تماثل ما خضعت له شعوب أخرى من إبادة عرقية. وهكذا فهم لا يكتفون بتأكيد الطبيعة العادية لدولة إسرائيل كما يرونها، بل يؤكّدون الطابع الطبيعي العادي لتاريخها. وقد آن الأوان، في نظرهم، للتخلّي عن الدعوة المضللة التي كانت تدعو إسرائيل إلى أن تكون «النور الهادي للشعوب». **فعلى إسرائيل أن تكون دولة كسواها، لا أكثر ولا أقل،** كالولايات المتحدة أو فرنسا أو بريطانيا أو سائر البلدان الديموقراطية والتعدّدية.

وطبيعي أن تكمن **مسألة «المحرقة»** في قلب هذه النظرة المعادية لـ «تفرد» إسرائيل. ولا يتسع المجال للتريث عند نظرة العلمانيين و"المؤرّخين الجدد" إليها. وحسبنا أن نشير إلى ما ورد بهذا الشأن في كتاب موشي زوكرمان Moshe Zukermann الصادر عام ١٩٩٣ وعنوانه: **المحرقة في الغرفة المغلقة** (مشيراً بذلك إلى حرب الخليج الثانية). ومما يقوله إن اليهود يخضعون في هذا المجال لعملية استغلال: إذ يقال لهم دوماً إن تاريخهم تاريخ فريد لا يشبه سواه، وبأنهم ضعفاء ومضطهدون وضحايا دوماً وإلى الأبد. وبذلك يتمّ بث الرعب في صفوفهم. و«قانون المحرقة» السائد في إسرائيل ـ كما يقول ـ يُكرّر دوماً بأن اليهود معرّضون للموت وعاجزون. والسلطة الحاكمة تخرج

من القالب نفسه الذي اصطنعه هتلر، وتستهدف الهدف نفسه حين تلجأ إلى المساخر مستخدمة ومستغلّة موضوع «المحرقة». ومن أجل تأكيد موقفها تستنجد بالمفهوم الذي أطلقه المفكّر ثيودور أدورنو Theodor W. Adorno، مفهوم «الوجدان الكاذب». وإلى مثل هذا يذهب كتّاب آخرون (أمثال الصحافي بوعاز ايفرون Boaz Avoron) حين يقولون إن **«المحرقة» غدت بين أيدي القادة الإسرائيليين أداة استغلال خطرة**. ومجمل ما يقوله تأييداً لحكمه: إن «المحرقة» لم تكن عملاً فريداً من نوعه، بل كانت عنصراً من عملية كانت تستهدف إبادة شعوب أخرى، وعلى رأسهم شعب الغجر. وليس هنالك فارق بين «المحرقة» وبين إبادة الشعب الأرمني مثلاً. ومن شأن الأسلوب الذي يتمّ به عرض «المحرقة» أن يولّد لدى المجتمع الإسرائيلي نزعات قومية متطرفة وعدوانية.

ج ـ والنقطة الثالثة التي تحدّد موقف العلمانيين من مسألة الهوية، هي أن **الهوية الإسرائيلية الجديدة التي يريدونها هوية متجهة نحو المستقبل**، قوامها مشروع مستقبلي، هو مشروع «المواطنة» الإسرائيلية، وليست هوية متجهة نحو الماضي، نحو تاريخ اليهود، والاضطهاد، و«المحرقة»، وشهداء حروب إسرائيل. ويوضّح ذلك أحد كبار علماء الاجتماع في إسرائيل، وهو سامي سموحا Sammey Smooha، فيقول إن إسرائيل حاولت أن تجمع بين المؤسسات الديموقراطية وبين السيطرة الإثنية. وفي مثل هذه «الديموقراطية الإثنية» تُعطى الأقلية جميع الحقوق المدنية الفردية وبعض الحقوق الجماعية، ولكن الأكثرية هي التي تضبط وتراقب الثقافة والشعارات وموارد المجتمع.

ومما ورد في مقال جديد للمؤرّخ الإسرائيلي البارز زئيف شترنهيل Zeev Sternhell[٢٢] عنوانه «الموضوعات المنسية في انتخابات عام ١٩٩٦»: إن على المجتمع الإسرائيلي أن يقرر الآن فيما إذا كانت دولته ستظل الذراع المنفّذ للمجتمع الثقافي الديني، أم أنها سوف تسنّ إطاراً للحياة قائماً على أساس مبدأ المواطنة، **بحيث تكون دولة لجميع مواطنيها**. ومثل هذه الدولة التي يتمناها تستلزم، فيما يرى، **الفصل الكامل بين الدولة والدين**. وهكذا ينطق شترنهيل باسم جميع أولئك الذين ينادون بمدرسة علمانية خالصة، عقلانية وإنسانية. ومن هنا، فإن الهوية الإسرائيلية الجديدة، فيما يرى، هي هوية علمانية قوامها الفرد المواطن، والمساواة الديموقراطية. وليس السؤال المطروح عنده: **«من هو اليهودي؟»**، بل **«من هو الإسرائيلي؟»**. ويعني هذا من الوجهة العملية تحطيم أي تميّز وتفرقة بين اليهود وغير اليهود. وواضح أن هذه النظرة متأثرة بالتاريخ الذي كشف عنه «المؤرّخون الجُدد»، ولا سيما فيما يتصل بما جرى في حرب ١٩٤٨ من اضطهادٍ للعرب وقتلٍ لهم وتدمير وتهجير. فمعظم الإسرائيليين أصبحوا اليوم يدركون ـ من خلال هذا التاريخ الجديد ـ أن آباء الصهيونية أهملوا

الوجود العربي وتصرّفوا وكأن البلاد خاوية على عروشها. وقد اشتد هذا الشعور منذ احتلال الأراضي العربية عام ١٩٦٧، وبعد الانتفاضة الفلسطينية بوجه خاص. ومن هنا فإن أول قانون يجب إلغاؤه ـ كما يقول شترنهيل ـ هو القانون المعروف باسم **«قانون العودة»** الذي يمنح حقوقاً خاصة مقصورة على المهاجر اليهودي.

ولا بد أن نستدرك هنا فنقول دفعاً لأي لبس إن مواقف «المؤرّخين الجُدد» التي أشرنا إليها والتي لقيت أصداءً واسعة لدى العلمانيين، **يشوبها ويفسدها أمران**:

ـ **الأول، أنها جاءت متأخرة وبعد فوات الأوان**: أي بعد أن تمّ طرد الصهيونية وعصاباتها الإرهابية لعرب فلسطين، وبعد أن مارست دولة إسرائيل ـ عن طريق الإيديولوجيا المزيفة ـ شتى أنواع القسر والاضطهاد والعنف؛ وبعد أن عبّأت الإسرائيليين في حروب متتالية ضد العرب؛ وبعد أن وسّعت حدودها بعد حرب حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧... وغير ذلك كثير.

ـ **والثاني، أن دعوة هؤلاء المؤرّخين ومن والاهم لن تعدو أن تكون ذراً للرماد في العيون، وتخلّصاً من الشعور بالذنب في أحسن تقدير، إذا لم يصاحبها عمل جاد يرتّب على الحقائق التي انتهت إليها مواقف عملية محسوسة**: كالدعوة إلى عودة اللاجئين؛ وكتوفير حق تقرير المصير للفلسطينيين؛ وكالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة جميعها دون قيد أو شرط؛ وكإقامة دولة ديموقراطية في إسرائيل تتعايش فيها القوميات والديانات المختلفة؛ وكنزع الطابع اليهودي الصهيوني عن دولة إسرائيل بالتالي.

د ـ والنقطة الرابعة التي نودّ أن نستخرجها من مفهوم الهوية لدى العلمانيين، **هي أن المجتمع الاستهلاكي في نظرهم مجتمع ينبغي أن يكون له شأن ومكانة**. فبعد أربعين إلى خمسين عاماً من قيام الدولة، وبعد أربعين إلى خمسين عاماً من المعارك المستمرة، تعب المحاربون وتاقوا إلى الدعة والرفاهية. وهكذا نشهد في إسرائيل اليوم موقفاً معادياً لروح التضحية، ومعادياً لتقشف الرواد الأوائل، وللحياة المتواضعة وللعمل الجسدي. فمثل هذه القيم غدت في نظر الكثيرين قيماً بالية، وحلّت عندهم مطالب جديدة، كالنزوع إلى الحياة المرفهة، وإلى المهن الحرة، وإلى التقانة المتقدمة، وإلى حضارة الحاسوب، وإلى النجاح الاقتصادي والاجتماعي. وما دامت البلاد قوية، وما دام الجيش يرعاها، وما دامت آفاق السلام قد أشرقت، فلا حاجة إلى الاقتصاد في النفقات، ومن الممكن واللازم أن يقوم **مجتمع وفرة ورخاء**. وهذا النزوع إلى السعة هو من أهم مظاهر «التسوية» بين إسرائيل وسواها من البلاد المتقدمة، بحيث تكون كالبلدان الأوروبية في البذخ والبحبوحة ووسائل الاستهلاك. وفي هذا ضربٌ من الانتقام من ماضي البلد. ومن هنا تغصّ الصحف بالإعلانات التي تحثّ على الاستهلاك الكمالي الرفيع، ونجد الإسرائيلي المتوسط يستهلك فعلاً كثيراً من وسائل الرفاهية.

ومن الهامّ أن نذكر هنا أنه إلى جانب هذا الفريق المفرط في الاستهلاك، **ثمة فريق آخر**

يعيش تحت عتبة الفقر، ويُعاني من البطالة، في الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى، وبوجه خاص في المدن التي تنمو وتتسع بسرعة. والهوّة ضخمة ومخيفة بين أولئك الذين يحلمون بالمتع والأسفار الفخمة وجدائد الطعام، وبين أولئك الذين لا يجدون في براداتهم ما يأكلون.

تلك هي أهمّ مقومات الهوية الإسرائيلية التي يدعو إليها الكثير من العلمانيين. وبدهي أن يكون الصراع حولها مستمراً وقائماً، لا سيما في أوساط المفكّرين. ولم تثبّت هذه الدعوة أقدامها بعد لدى القواعد العلمانية. ولا يزال لها معارضوها في بعض الأوساط الثقافية، الذين يأخذون عليها نزعتها الفردية المغالية، واتخاذها الكسب والنجاح معياراً لكل شيء، وإهمالها للمشكلات الاجتماعية ـ الاقتصادية التي تعصف بإسرائيل، وبحثها عن الرفاهية والنعيم في مجتمع يحيا فيه طفلٌ من أصل خمسة حياة الفقر والفاقة، ويبحث فيه المهاجرون الروس وفلاشة الحبشة في أكياس القمامة، ويعمل ضمنه العمال العرب في الأراضي المحتلة والعمال الأجانب القادمون من تايلاند ورومانيا ضمن أوضاع مُهينة وهم صاغرون.

ولكن على الرغم من أن هذه النزعة تلقى بعض النقد، وعلى الرغم من أنها لم تكتمل ولم يشتد عودها بعد، فإنها مع ذلك تظل النزعة الوحيدة التي تحمل بين ثناياها تصوّراً حديثاً وعصرياً لدولة إسرائيل، تنأى بها عن المتاهات الصهيونية المزمنة، وتفسح المجال لولادة مجتمع «ما بعد الصهيونية» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معايير، وتُخرج إسرائيل من الطريق المسدود.

٢ ـ ٢ ـ الهوية الدينية «الصهيونية الجديدة»:

التيار الوحيد الذي يجابه مجابهة جادّة التيار العلماني الداعي إلى «ما بعد الصهيونية» هو ـ كما سبق أن قلنا ـ تيار **«الصهيونية الجديدة»** الذي يُنادي به القوميون المتدينون. وقد كان هذا التيار قائماً دوماً، سوى أنه تطور بعد حرب الأيام الستة بوجه خاص. وقوام هذا التيار هو «أرض إسرائيل» أكثر من «دولة إسرائيل». وهو لهذا يؤكّد على «الطابع اليهودي» للدولة في مقابل «الطابع الإسرائيلي»، ويأخذ بالهوية «الإثنية الدينية» بالتالي في مواجهة «الهوية المدنية». ويمثّل الطليعة الإيديولوجية لهذا التيار حركة «غوش إيمونيم»، والمستوطنون الصهاينة المتدينون الذين يقطنون الأراضي المحتلة. ومعظم المهاجرين من الغرب، من الولايات المتحدة أو من فرنسا، الذين وصلوا خلال السنوات الأخيرة، يتبنون هذا التيار بحماسة بالغة.

وهكذا، ففي مواجهة التطوّر الذي تمّ لدى السكان العلمانيين في اتجاه الأخذ بهوية قوامها الديموقراطية الليبرالية الرأسمالية، لا نجد طرحاً آخر للهوية سوى الهوية «الصهيونية ـ الدينية». فالأرثوذكسيون الغُلاة ـ كما سبق أن قُلنا ـ منطوون على أنفسهم وعلى أحيائهم وعلى معاهدهم التلمودية، ولا يشكّلون بالتالي أساساً لهوية إسرائيلية جديدة، فضلاً عن أن

هذا الموضوع كله لا يعنيهم. وعالم «لابسي السواد» لا يعنيه إلاّ الحفاظ على التقاليد اليهودية وعلى الديانة اليهودية، وما سيحدث أو لن يحدث لإسرائيل ليس من شأنهم. وهمّه الأول أن يحاول إعادة اليهود العلمانيين إلى حِمى الدين في أقصى وأقوى صوره. ويبدو أنه يحقّق في ذلك بعض النجاح. فكثير من الشبّان العلمانيين، الذين أوقعهم «غياب المضمون» في الحيرة والضياع، يغريهم ما في العودة إلى «العزلة» (الغيت Ghetto) الأرثوذكسية وممارسة الطقوس الدينية من أمان وطمأنينة.

وعلى العكس من هذا يزعم التيار الصهيوني الديني (الذي يشكّل اليوم ـ كما سبق أن ذكرنا ـ حوالى ١٥٪ إلى ٢٠٪ من سكان إسرائيل) أنه يمثّل وحده الاستمرار الأمين للفكرة الصهيونية الأصيلة. **ويشهد هذا التيار تقدماً ملحوظاً ويكسب الكثير من الأتباع**. والحق، إن صورة الصهيونية، بعد مرور مائة عام على مؤتمر بال وعلى دعوة هرتزل، لا يزال يصوغها ويرسم ملامحها مستوطنو الضفة الغربية وأنصارهم والمتعاطفون معهم ممن يرفضون أي معالجة حصيفة ومتّزنة للتاريخ اليهودي. وهذه الصهيونية الدينية التي يتبناها المستوطنون تكرر معظم أفكار «الصهيونية ـ الاشتراكية» على نحو ما صيغت في البداية. وعلى سبيل المثال، تتبنى هذه الصهيونية الدينية اليوم التأكيد على دور الريادة والتضحية، وعلى أهمية الحياة الاجتماعية والروابط «المجموعية» والحياة المشتركة والقيم القديمة التي سادت الكيبوتزات. وتنافح عن ذلك «المَثَل الأعلى الروحي» الذي يدعو إلى الدفاع عن البلد المهدّد، وإلى احتلال «أرض إسرائيل» المزعومة. ومن الجدير بالذكر هنا أن الصهيونية العلمانية قد تبنت هذه القيم ردحاً طويلاً من الزمن، بل كانت بطلتها ورائدتها.

أما اليوم، فيحمل المشعل المستوطنون ذوو «القلنسوات المجدولة»، بعد أن سقط من يد العلمانيين. ولا حاجة إلى القول إن هذا الدور الريادي الجديد الذي يضطلع المستوطنون ومن والاهم لا يأبه في قليل أو كثير بشعب البلاد الأصلي، نعني الشعب الفلسطيني، ولا يتردد في استخدام العنف معه، كما شهدنا في السنوات الأخيرة بعد «اتفاق أوسلو» بوجه خاص، في الخليل والقدس وسواهما. وواضح أن قوة هؤلاء المستوطنين وأعوانهم من الصهاينة المتدينين **(وعلى رأسهم جماعة «غوش إيمونيم»)** تكمن في تلك الازدواجية التي تتيح لهم أن يعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين الذين يسيرون على النهج الصهيوني، وأن يقدّموا في الوقت نفسه صيغة لهوية إسرائيل الغد. ومن هنا، فإن هذه الإيديولوجية القومية الدينية لا تجد أمامها سوى الفراغ الإيديولوجي لليسار العلماني، أو الانطواء الساخر لغُلاة الأرثوذكسيين. يُضاف إلى هذا أن عدد الذين يؤيدونها يمكن أن يتضاعف بيسر، بسبب التزايد السكاني الكبير السائد في أوساطها.

ولا حاجة إلى القول إن المنظور التاريخي اليهودي الذي تُدافع عنه الصهيونية الدينية وتلقنه للشباب في مدارسها، لا يختلف عن المنظور التقليدي الصارم والثابت والمتمحور

حول نظرة إثنية ترى في التاريخ اليهودي تاريخاً فريداً صنعه الاضطهاد الذي مارسه غير اليهود (الغوييم) على اليهود. يُضاف إلى ذلك أنه يؤكد حق إسرائيل الثابت في أرضها المزعومة، والطابع العادل للحركة الصهيونية، والطابع المتفرد لـ«المحرقة»، فضلاً عن شرعية حرب عام ١٩٤٨، «حرب الاستقلال» كما يسمونها - وسائر حروب إسرائيل بلا استثناء، **وفضلاً عن الطهارة المطلقة للجندي اليهودي في كل ما يقوم به.** وهذه الرؤية للتاريخ - وهي رؤية تجاوزها الزمن ولكنها مريحة مُطَمْئِنَة في ظاهرها - هي التي ينقلها النظام التربوي لدى هذه الفئة. وفي حين أن النظام التربوي العلماني لا يقدّم سوى التاريخ العام، تاركاً التاريخ اليهودي في المنزلة الثانية أو الثالثة، نجد النظام التربوي الصهيوني الديني يحجم عن تعليم التاريخ العام ولا يقدّم سوى تاريخ اليهود. وتشهد على ذلك تلك المظاهرة الحاشدة التي ضمت حوالى رُبع مليون يهودي متطرّف من أنصار حركة «الحريديم» الأرثوذكسيين (والتي قامت في ١٤ شباط/ فبراير ١٩٩٩) احتجاجاً على بعض قرارات المحكمة الإسرائيلية العليا وعلى رأسها القرار الذي يُشكّك بقانون قديم أصدره الكنيست يعفي شباب الحريديم الذين يدرسون في المدارس الدينية من الخدمة العسكرية الإلزامية. وقد وصف بعض المحللين الإسرائيليين تلك الحركة التي أعلنها الحاخامات ضد المحكمة **بأنها صراع قد يتحوّل إلى حرب أهلية ثقافية.**

٢ - ٣ - هل من فريق ثالث؟

ويحقّ لنا أن نتساءل، بعد عرضنا لموقف كلا التيارين العلماني والديني الصهيوني من مستقبل الهوية في إسرائيل، هل ثمة موقف ثالث يستطيع أن ينقذ الإسرائيليين من الوقوع بين «قَرْنَيْ الإحراج» كما يقول المناطقة؟ والجواب على هذا السؤال: نعم، ولكنه قليل عديده. فلدى بعض العلمانيين القلائل خوفٌ من أن يقود منطقهم إلى موقف خلو من المعنى، ورغبة بالتالي في أن يستطيعوا أن ينقلوا إلى الأجيال المقبلة «تراثاً» ما. ومن هنا تجري في أوساط هذه القلّة إعادة اكتشاف لما يسمى في إسرائيل «خزانة الكُتُب اليهودية». وهكذا يلتقون فيما بينهم، أو حتى مع بعض الأصدقاء المتدينين، ليعيدوا دراسة المصادر والمراجع اليهودية. وثمة بينهم من يدعو إلى تعزيز تدريس التاريخ اليهودي في المدرسة العلمانية، أو من يمضي حتى إلى إنشاء معاهد مدرسية تعنى بالتراث اليهودي عناية واضحة.

أما عند الطرف الثاني، طرف المتدينين الصهاينة، فنشهد كذلك أقلية صغيرة تحاول أن تعقد صلات مع العلمانيين من أجل معرفتهم معرفة أفضل. وهكذا تكوّنت بعض الحركات التي تُوصف بأنها معتدلة، مثل حزب «ميماد» Meimad الذي أنشأه الحاخام أميتال Harav Yehuda Amital (وهو حزب ديني صهيوني أشكنازي معتدل يُوصف بأنه عقلاني)، كما تكوّنت جماعة دينية مؤيدة لعملية السلام. وحركة «يغفوت شالوم» (طريق السلام) تعمل في هذا الاتجاه، من دون أن تلقى نجاحاً ذا بال.

الفصل السابع

نظرة إجمالية إلى الصراع حول الهوية في إسرائيل

أولاً ـ نظرة موجزة إلى الصراع:

١ ـ يلخّص هذا الموقف الثنائي بين المتدينين والعلمانيين الحاخام إسرائيل هاريل Israël Harel، رئيس مجلس المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية (وهو أحد الحاخامات القلائل الذين أدانوا مقتل رابين) على النحو التالي:

«إن ثمة وَطَنَيْن آخذين بالتكوّن في إسرائيل: وطن الإسرائيليين، ووطن اليهود. أما الإسرائيليون فهم "أغيار" (غوييم) غرباء يتكلّمون العبرية لا أكثر ولا أقل. ولقد أنهكتهم الحروب وسئموا منها، ونسوا الصهيونية، ولم يعرفوا اليهودية يوماً ما. وقد جاء رابين ليقول لهم فوق ذلك كله، أن لا خوف على أمن إسرائيل، وأن في وسعهم أن يطمئنوا بعد اليوم إلى أنهم لن يرحلوا عن هذه البلاد. فماذا يبقى لهم بعد ذلك؟ يبقى لا شيء، يبقى الفراغ المطلق. وهو فراغ لن تستطيع العلمانية أو الديموقراطية أن تسدّه، فكلتاهما لا تُعتبران من القيم البنيوية الأساسية للشعب اليهودي. وبمقدار ما كنا نقترب من تنفيذ "اتفاقات أوسلو" كان يبدو واضحاً للفريق الأول، فريق المنتمين إلى "وطن الإسرائيليين"، أن الأرض قد غدت عقبة في وجه التطبيع، بينما كان يبدو للفريق الثاني، فريق المنتمين إلى "وطن اليهود"، أن التطبيع خطر على الهوية الإسرائيلية».

٢ ـ ومما هو جدير بأن نشير إليه، في هذا المجال، تلك الوثيقة التي عُرفت باسم «اتفاقية الوضع الراهن» Status quo والتي نظّمت العلاقة بين المتدينين والعلمانيين منذ نشأة إسرائيل. ففي حزيران/ يونيو ١٩٤٧ أرسل بن غوريون (الذي كان آنذاك رئيساً لإدارة الوكالة اليهودية) خطاباً إلى حزب «أغودات يسرائيل» وعد فيه بأن تُحفظ للدين عدة مبادىء رئيسة. ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه الاتفاقية تُرفق بكل اتفاق ائتلافي (منذ عام ١٩٥٥) بين «الماباي» (حزب العمل) والأحزاب الدينية، وبعد ذلك بين حزب «الليكود» والأحزاب الدينية منذ عام ١٩٧٧، عام الانقلاب السياسي الكبير[٢٣].

ولكن الأحداث أخذت تقضم مبادىء هذه الاتفاقية يوماً بعد يوم، إلى أن ذهبت أدراج الرياح بعد وقوع الفصام بين العلمانيين وبين المتدينين المتشدّدين. وعادت إلى الظهور والبزوغ الساطع من جديد المبادىء الأساسية للعقيدة اليهودية الأرثوذكسية بكل ما فيها من غرائب الفرائض والطقوس، الأمر الذي جعل غُلاة اليهود المتشدّدين أنفسهم يؤكدون أن التاريخ يعيد نفسه، وأن تاريخ دولة إسرائيل الحديثة تكرار للتاريخ اليهودي القديم، بكل ظلمه واضطهاده وحروبه ومآسيه. وهذا كله عندهم يشير إلى أن الدرس الذي تعلّموه من التاريخ اليهودي والمكابي يكاد ينبىء بدقة أكيدة بمصير دولة إسرائيل، حتى لكأن الغد أشبه بالأمس من الماء بالماء.

٣ ـ وهكذا صدق تحذير ليو بنسكر (١٨٢١ ـ ١٨٩١)، أحد رواد الصهيونية الشهيرين، حين رفض إقامة دولة يهودية في فلسطين، مبرّراً ذلك بأن العلاقة بين أرض إسرائيل وبين ما هو مقدس علاقة قوية إلى حدّ تجعل من المستحيل أن تقوم دولة يهودية في إطار سياسي محض بعيداً عن الدين كما سبق أن ذكرنا. وقد قاده هذا المنطلق إلى نبوءة جريئة، حين بيّن أن سقوط دولة داوود ومن بعده يرجع إلى الخلط المبهم بين الوجه السياسي (ممثلاً بالملك والقضاة) وبين الوجه الديني (ممثلاً برجال الدين والأنبياء). وهذا الخلط ـ كما يقول ـ لا يمكن اجتنابه في حال اختيار أرض فلسطين. ومن هنا فمن الواجب اجتناب ذلك الوهم المشؤوم، أي «إحياء دولة يهوذا القديمة» وما كان بعدها من مآس. وعنده أن النزعة «المسيحانية» والدينية تجعل كل بحث عن إقامة دولة سياسية ذات طابع إنساني بحثاً عقيماً.

ثانياً ـ الهوية ومستقبل الصراع في إسرائيل:

الحديث في الواقع عن صراعات الواقع الحالي في إسرائيل يطول، وهو متعدّد الوجوه. ولا شك في أن كل ما في الوجود الإسرائيلي الحالي يشير إلى اضطراب إيديولوجي خطير، وينبىء بتعاظم الأخطار البنيوية الداخلية التي تهدّد الوجود الإسرائيلي. ويعنينا من هذا كله أن نطرح السؤال الأساسي والحاسم: «ما هي احتمالات تفجّر الكيان الإسرائيلي من داخله بسبب صراعاته الإيديولوجية المزمنة والحادّة؟».

١ ـ وللإجابة على هذا السؤال يحسن بنا أن نعود أولاً عودة خاطفة إلى الوراء، لنتساءل: «كيف استطاعت الصهيونية أن تقيم دولة في إسرائيل على الرغم من صراعاتها الذاتية العميقة كما رأينا؟». فمن شأن الإجابة على هذا السؤال أن تيسّر لنا الإجابة على السؤال الأساسي وهو: «هل تستطيع إسرائيل أن تبقي على كيانها، على الرغم من احتدام الصراعات العنيفة فيه؟».

ولنبدأ بالإجابة على السؤال الأول، بإيجاز شديد، ولا سيما أننا تعرّضنا لذلك في مطلع بحثنا:

نستطيع أن نلخّص العوامل التي أدّت إلى خلق الكيان الإسرائيلي رغم كل تناقضات الصهيونية والصراعات داخلها، في الأمور الآتية:

أ ـ على الرغم مما تشتمل عليه صهيونية هرتزل من تناقض فكري، وعلى الرغم من وجود خصوم ألداء له، فقد كان يجمع جمعاً موفقاً بين الفكر والعمل (خلافاً لخصومه الذين كانوا يكتفون غالباً بالفكر)، ويدرك بوجه خاص أهمية العمل في توليد أي إيديولوجية (فالإيديولوجية عنده لا تُكتشف بل تُولد وتُبنى). وقد عبَّر عن ذلك هو نفسه حين قال في خطابه في المؤتمر الصهيوني الأول في بال عام ١٨٩٧ : «في البدء كان العمل». **ولا شك أن أهمّ جوانب العمل من أجل إنجاح إيديولوجية الصهيونية كان العمل السياسي والدبلوماسي**. وهكذا قضى السنوات القليلة التي عاشها بعد هذا المؤتمر (والتي لا تعدو سبع سنوات، إذ توفي عام ١٩٠٤) في عمل لا يكلّ واتصالات سياسية ودبلوماسية مع معظم البلدان الغربية، ومع الدولة العثمانية وسواها (حتى إن بعض الكتّاب يتحدثون عن «شرهه» الدبلوماسي). هذا فضلاً عن عمله الدائب من أجل تعبئة الجماهير اليهودية من أجل فكرته التي كانت تلقى مقاومة عنيدة، شعبية وفكرية. تُضاف إلى هذا براعته التلفيقية. وقد سلك السلوك العملي نفسه وزاد عليه حاييم وايزمان (رجل الدولة العبقري في زعم بعضهم!) ولا سيما بعد أن استقر في بريطانيا منذ عام ١٩٠٤، حيث أطلق فكرة «الصهيونية المركّبة» التي تشجع في آن واحد النشاط العمالي في فلسطين والعمل الدبلوماسي.

وقد عبَّر عن هذه الحقيقة الدكتور عبد الوهاب المسيري (صاحب موسوعة **اليهود واليهودية والصهيونية**) في الدراسة التي قدمها إلى ندوة «العرب ومواجهة إسرائيل» التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت، وسبقت الإشارة إليها، حين قال: «اكتشف الصهاينة قضية في غاية البساطة جعلت نجاحهم محتوماً، وهي الإمبريالية الغربية. فكل من كان لديه مشروع يرغب في تحقيقه، ما كان عليه إلاّ أن يتبنى الحلّ السحري، وهو الحلّ الإمبريالي. فالإمبريالية الغربية كانت هي القوة العظمى التي تقتسم العالم، وتصدِّر له المشاكل الغربية وكل فواتير التقدّم الغربية. فالسلع الكاسدة كانت تُصدَّر إلى أسواق الشرق. والمواد الخام الرخيصة كان يتمّ الحصول عليها من إفريقيا وآسيا عن طريق تحويلها إلى اقتصاديات متخصّصة مُلحقة بالاقتصاد الغربي، وتحويل شعوبها إلى أيدٍ عاملة رخيصة. أما الفاشلون اجتماعياً (اللصوص ، المجرمون ، من لم يحققوا حِرَاكاً اجتماعياً داخل الاقتصاد الرأسمالي) فكانوا يُصدّرون تماماً مثل السلع الكاسدة، إلى المستعمرات في الشرق، خاصةً الجيوب الاستيطانية. وقد اكتشف هرتزل «عبث» المحاولات الصهيونية السابقة عليه، الرامية إلى تأسيس الوطن القومي اليهودي من خلال الجهود اليهودية الذاتية، ولذا بدلاً من التوجّه إلى روتشيلد المليونير اليهودي، توجّه مباشرة إلى الاستعمار الإنكليزي».

بل إن هرتزل برع في استغلال التنافس الاستعماري للقوى الكبرى. فلقد تعهد

للإنكليز بحماية الطريق المؤدية إلى الهند، ابتداءً من «أوغندا» أو «فلسطين» التي تقع على مفترق طرق ثلاث قارات، الأمر الذي يتعارض مع أهداف الألمان في الشرق الأوسط. وفي الوقت ذاته تعهّد لغليوم الثاني بحماية مشروعه «برلين ـ بغداد»، الأمر الذي يعارض السياسة الإنكليزية. وفي ١٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٨٩ حصل على مقابلة مع القيصر، وكتب في هذا الشأن في **مذكراته** (المجلد الأول، ص ٢٠٦٧): «. . . عندما اقترحت عليه مشروعي، أي الشركة ذات العهد والحماية الألمانية لاقتسام الإمبراطورية العثمانية ـ الرجل المريض ـ وافق عليه».

ب ـ كان ثمة تأييد مبكر للنزعة الصهيونية ظهر في الدول الأنجلوسكسونية البروتستانتية في أوروبا، ولا سيما بريطانيا كما سبق أن ذكرنا. وكان وراء هذا التأييد ثلاثة عوامل:

ـ **أولها** ظهور ما يُعرف باسم **«الصهيونية غير اليهودية»**، وهي مجموعة من المعتقدات كانت سائدة بين غير اليهود (ولا سيما البروتستانت الذين يتمسكون بتعاليم **العهد القديم**)، وكانت تدعو إلى تأييد قيام دولة يهودية في فلسطين. وتعود هذه النزعة تاريخياً إلى ثلاثمائة عام قبل المؤتمر الصهيوني الأول، وكانت واضحة في حركة الإصلاح الديني البروتستانتي التي شهدها القرن السادس عشر، وقوامها التأكيد على ما جاء في **العهد القديم** من عودة اليهود إلى فلسطين، واعتبار عودتهم تمهيداً لعودة «المسيح المنتظر». وقد بلغ هذا الاتجاه المؤيد للصهيونية قبل بزوغها ذروته في عهد الثورة البيوريتانية في إنكلترا في القرن السابع عشر. وتكاثر عدد البروتستانت المؤمنين بـ«العصر الألفي السعيد» في أوروبا (إنكلترا وهولندا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا اللوثرية والبلدان الاسكندنافية وسواها». بعد ذلك تبنّى هذا الاتجاه الداعي إلى عودة اليهود إلى أرض فلسطين (والذي اختلط بأغراض سياسية) سياسيون بريطانيون كبار، من أبرزهم بالمرستون (وزير الخارجية عام ١٨٣٠)، وتشارلز هنري تشرشل ومن بعدهما بلفور[٢٤]، صاحب الوعد المشؤوم. وتزايد المؤيدون لهذه النزعة الصهيونية غير اليهودية واستمرت حتى أيامنا هذه، ولا سيما في الولايات المتحدة حيث تحظى بتأييد واسع وهام، ولا سيما لدى صانعي القرار السياسي. وقد كان جيمي كارتر من أبرز ممثّلي هذا الاتجاه، وكان يرى، وهو رئيس، **«أن دولة إسرائيل هي أولاً وقبل كل شيء عودة إلى الأرض التوراتية. . . وأن إنشاء دولة إسرائيل هو إنجاز للنبوءة التوراتية وجوهرها»**. ومثله فعل الرئيس ريغان من بعده.

ـ **وثاني** هذه العوامل التي دفعت إلى تأييد الغرب، ولا سيما بريطانيا، لعودة اليهود إلى فلسطين، **النزعة اللاسامية التي كان يعزّزها الخوف من تزايد أعداد المهاجرين اليهود إلى الغرب**، ومن تزايد نفوذهم الاقتصادي والسياسي، على الرغم من القوانين التي تحدّ من هجرة اليهود إلى بريطانيا آنذاك.

ـ وثالثها وأهمها اللقاء بين المنازع الصهيونية وبين المطامع السياسية لبريطانيا، إذ وجدت الحكومة البريطانية منذ وقت مبكر أن الصهيونية تحقّق مصالحها الاستعمارية، وأن وجود اليهود في فلسطين يضمن لها مراقبة قناة السويس، الشريان المائي الحيوي، وإقامة علاقة استراتيجية بالتالي بين مصر والإمبراطورية البريطانية في الهند. ولن نتوقف طويلاً عند هذا العامل الهامّ، فالحقائق عنه كثيرة، وقد غدا من بديهيات الأمور. وحسبنا أن نقول إنه لولا وصاية لندن لما كان للهجرة اليهودية إلى فلسطين أن تستمر وتشتدّ، ولما ولد الكيان الصهيوني بالتالي.

وهكذا التقت الصهيونية مع المطامع الاستعمارية البريطانية. ولا أدلّ على ذلك من أن هرتزل نفسه في كتابه **دولة اليهود** يعتبر الوطن اليهودي الموعود «جداراً ضد آسيا وقاعدة متقدمة للحضارة في مواجهة البربرية»! وإذا كانت الحضارة الغربية ـ كما يقول ـ تهدف إلى إخصاب الأراضي الزراعية المهجورة، فللصهيونية دور كبير في مهمة التمدين هذه! ومن هنا اعتبر كثير من الباحثين، في الغرب وسواه، أن إسرائيل هي بمثابة «حصان طروادة» للغرب.

ج ـ ولا حاجة إلى أن نذكر بعد ذلك ثالثة الأثافي، نعني ما تمّ من **زواج جديد بين الصهيونية والولايات المتحدة الأمريكية**، وأدّى إلى إعلان دولة إسرائيل، ولا سيما حين التقت المنازع الأمريكية مع الاعتبارات السياسية لدى الاتحاد السوفيتي.

د ـ ولا حاجة إلى أن نضيف إلى هذه العوامل التي أدّت إلى نجاح الإيديولوجية الصهيونية، على الرغم من طوباويتها، ما كان من دعم اليهود الروس والأمريكيين لبريطانيا في الحرب العالمية الأولى، ولا سيما في عام ١٩١٧ الذي فشلت فيه هجمات الحلفاء. ومن أماثر ذلك الدعم إسهام حاييم وايزمان نفسه (وهو عالم كيمياء) في الجهد العسكري عن طريق أبحاثه المتصلة بمادة «الأسيتون» Acetone. كذلك لا حاجة إلى أن نذكر بين هذه العوامل الاضطهاد النازي لليهود أثناء الحرب العالمية الثانية.

٢ ـ ولنترك الأمس ولنعدْ إلى اليوم والغد، ولنبحثْ في العوامل التي تُبقي على إسرائيل، والتي يمكن أن تُبقي عليها في المستقبل، على الرغم مما عرفنا من تداعي بنيتها الإيديولوجية.

أ ـ لا مراء في قدرة الكيان الإسرائيلي على امتصاص المشكلات والاجتهادات والآراء. ولعلّه تمرس بها طويلاً، بل لعل الشعب اليهودي قد ألفها في تاريخه القديم والحديث. أليس في الآية ٧٦ من **سورة النمل** ما يشير إلى هذا الصراع القديم ـ الجديد؟ تقول الآية الكريمة: ﴿إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾[٢٥]. ألم تعرف اليهودية منذ القديم تفسيرات وفتاوى لا تخلو من خداع ورياء، تتجلى في نظام «الإعفاءات الشرعية» Heterim، وفتاوى رجال الدين المتناقضة؟ ولا شك أن للديمقراطية السائدة اليوم لدى قسم من شعب إسرائيل دوراً في امتصاص الصراعات.

ب ـ غير أن من المؤكد أنّ أهمّ عامل يعمل على اجتماع الإسرائيليين، على الرغم من تعارض منازعهم، هو عداؤهم للعرب وشعورهم بأنهم قد ألقي بهم في أرض مطوقة بالأعداء. ومن هنا، فإن بعض الألفة تجمعهم عندما يحقّقون انتصاراتهم على العرب. وهذا ما جرى بوجه خاص بعد حرب ١٩٦٧ التي وحّدت صفوفهم إلى حد بعيد. وعلى العكس من ذلك، فإنهم يعودون إلى الشقاق والصراع عندما يفشلون في معاركهم ضد العرب. وهذا ما حدث عام ١٩٧٣ وما حدث بعد حرب لبنان بوجه خاص، إذ تنكّر للصهيونية ولإسرائيل أكبر أنصارهما. وهذا ما حدث أيضاً أثناء الانتفاضة الفلسطينية التي زادت في تمزق الإيديولوجيات في إسرائيل.

ج ـ ومهما يكن هنالك من مدّ وجزر في الصراعات داخل إسرائيل، فإنها تظل صراعات تهدّد الكيان الإسرائيلي، لولا مبادرة الغرب والإمبريالية الأمريكية لإنقاذه. **ومن المؤكد أن الغطاء الأمريكي يوفّر قدراً كبيراً من الطمأنينة لشعب إسرائيل** وييسّر له أن يتصارع في طمأنينة وأن يحترب بأمان! بل إن المساعدات الاقتصادية نفسها (فضلاً عن سواها)، التي تقدّمها لإسرائيل الولايات المتحدة والشتات اليهودي وبعض الدول الغربية، عاملٌ من عوامل الاستقرار. فمما يُساعد على إطفاء الصراع بين أبناء إسرائيل، نمو الاقتصاد وارتفاع الدخل القومي للفرد فيها. ويقيننا أن هذا الصراع كان حرياً به أن يتفجّر ويفجّر ما حوله لو عاش الإسرائيلي في فاقة. ولا أدلّ على ذلك ما نجده لدى «السفارديم» الشرقيين من منازع متطرفة ضد الدولة.

د ـ غير أن للعون الأمريكي وسواه وجهه الآخر الخفي الذي سوف يؤدّي في رأينا ـ إذا ما توافرت بعض العوامل الأخرى ـ إلى مزيد من تشتت الكيان الصهيوني إنْ لم يؤدِ إلى تمزيقه والتمهيد لزواله. فالسياسة الأمريكية التي تضع ثقلها الصوري من أجل السلام بين العرب وإسرائيل، تفعل ذلك استناداً إلى القوة وحدها، وفي منأى عما يستلزمه واقع الأمور، ظناً منها أن تجاهل المشكلات يمكن أن يؤدّي إلى حلها. ومعنى هذا أنها، في حقيقة الأمر، تعمل من أجل سلام كاذب محمّل بكل إمكانات التفجُر في المستقبل، في الكيان الإسرائيلي بوجه خاص. وهكذا تعود إلى «الخطيئة الأولى» حين أوجدت إسرائيل قسراً، فأشعلت بذلك المعارك داخل إسرائيل وبين العرب وإسرائيل. وهي بذلك تثبت من جديد ضعف إدراكها لطبيعة المشكلة، وجهلها بشعوب المنطقة، أو إصرارها رغم كل ما تعرف على الاستهتار بهذه الشعوب من خلال غطرسة القوة، أو وقوعها فيما يسميه هيغل «خداع الفطنة». وقد لا يكون من المغالاة أن نشبّه عملها بعمل الغريزة اللاواعي، الذي يشبّهه الفيلسوف الفرنسي برغسون بعمل نحلة تجهد وتجهد من أجل جمع العسل في الخلية، بينما قد تكون الخلية كلها مثقوبة. **وكأن السلم على نحو ما تعمل له الولايات المتحدة وإسرائيل يريد أن «تنجح العملية الجراحية ولو مات المريض»!**

لقد خلقت الدول الغربية ـ وعلى رأسها الولايات المتحدة ـ دولة إسرائيل، غير آبهة بالواقع والممكن، فضلاً عن استهتارها بحقوق الشعوب. واليوم تعود إلى مداواة الداء بالداء. فتطرق السلام من منطلق الحرب والقوة. وعندنا أن مثل هذا السلام لا يظلم العرب وحدهم، بل يظلم إسرائيل فوق ذلك، بل قبل ذلك، ويضعها عاجلاً أو آجلاً في مواجهة انتقام المظلوم وما تراكم عنده من خمائر النقمة المتحدّية، الأمر الذي يبعث الحياة في شقاقها الداخلي، ويزيده أواراً واشتعالاً، ويهدّد وجودها كله بالتالي.

هـ ـ ومهما يكن من أمر، فإن سلم إسرائيل الداخلي والخارجي ـ إن أرادته سلماً باقياً ـ لا يتحقق إلا إذا سعت سعياً جاداً إلى تحقيق ما قال به كثير من زعماء الصهيونية نفسها في البداية، حين أكدوا أن «**إسرائيل لن تبقى إلاّ إذا وافق العرب على بقائها**»، ولا يكون ذلك إلاّ إذا غيَّرت جبلتها، ونأت عن منطلقاتها الصهيونية، وكفَّرت عن خطاياها، وأعادت الحق إلى أصحابه، وكانت دولة ديمقراطية كأي دولة في العالم، كما يدعو إلى ذلك كثير من منظِّريها. وفي مقابل ذلك، فإنها تصيب مقتلها إن هي تبنت الشعار المضاد الذي قال به جابوتنسكي وأنصاره من أصحاب اليمين القومي المتطرف اليوم (من أمثال نتنياهو وشارون)، نعني به الشعار الذي يُعلن أن العرب لن يوافقوا يوماً على بقاء إسرائيل، ولهذا فلا سبيل معهم إلاّ سبيل القوة والعنف، بحيث يقبلون بالسلم أذلّة صاغرين. ولا نُغالي إذا قلنا إن الوضع الممزّق في إسرائيل اليوم، وإصرار إسرائيل والإسرائيليين على استمراره، وإصرار الولايات المتحدة على تغذيته من حيث تدري ولا تدري، يذكِّرنا بالمرض النفسي الذي يُطلق عليه علماء النفس اسم «**عصاب المصير**»، وهو يعني سعي الأفراد (والجماعات)، من حيث لا يشعرون، إلى تكرار المآسي عينها التي مرّت بهم في الماضي.

ثالثاً ـ خاتمة حول الصراع على الهوية:

وهكذا يستبين لنا في خاتمة المطاف من عرضنا لموضوع الهوية في إسرائيل، ومن الصراعات حولها، ولا سيما بين العلمانيين والمتدينين الصهاينة الذين يتقاسمون الساحة، أن كل شيء اليوم في إسرائيل مرتبط بكل شيء: التاريخ وعملية السلام؛ الهوية الدينية والهوية الإسرائيلية. . . إلخ. ويستبين لنا أكثر من هذا أن أي مسألة من هذه المسائل لم تلقَ حلاً يمكن أن يقود إلى ما يُشبه الإجماع، بل العكس هو الصحيح. في إطار هذه الصورة من حق الباحثين الإسرائيليين، ولا سيما من أنصار «المؤرّخين الجُدد» ومن العلمانيين، أن يتنبأوا بمستقبل أكثر اضطراباً وقلقاً. وفي رأيهم، إن السلم مع الفلسطينيين ومع سائر العرب سوف يؤدي، عندما يأتي، إلى انفجار غطاء قِدْرِ الهوية، ذلك الغطاء الذي حافظت ضرورات الأمن والدفاع على متانته حتى اليوم. **ولا بد، فيما يرون، من أن يأتي يوم تنفجر فيه الصراعات التي كُبتت زمناً طويلاً**، بسبب هاجس الأمن هذا: كالصراع بين المتدينين والعلمانيين؛ وبين الفقراء والأغنياء؛ وبين دولة اليهود ودولة المواطنين. وداخل ذلك

الصراع بين الهويات المتعددة، سوف يظل تاريخ الصهيونية وإسرائيل قلب الجدل ومحوره. ولا شك أن اغتيال إسحق رابين، وهو ممثّل عالم «الصباريم» و«البالماخ»، بيد صهيوني ديني متطرف (هو إيغال عمير) أطلق عليه الرصاص وهو يعتقد اعتقاد الراسخ بأنه إنما ينفّذ رغبة أجداده في السماء! حدثٌ هام غني بالمعاني والدلالات المستقبلية. بل إن بعض الكتّاب الإسرائيليين يتحدّثون عن انقسام المجتمع الإسرائيلي، لا سيما فيما يتصل بمطالبه من الدولة وعلى رأسها المطالب السكنية، إلى قبائل: منها القبيلة الروسية؛ ومنها القبيلة الاستيطانية؛ ومنها القبيلة الزراعية؛ ومنها القبيلة الشمالية؛ ومنها القبيلة اليهودية الجنوبية... إلخ. الأمر الذي يجعل بعض هؤلاء الكتّاب يُطمئنون أنصار السلام قائلين: عندما ينحلّ الشعب إلى قبائل، يصعب توحيده في وجه العدو!

ويشهد على ذلك تقرير وكالة **فرانس برس**، الذي نشرته صحيفة **البعث** السورية بتاريخ ١٣ أيار/ مايو ١٩٩٩، حول ما ساد معركة الانتخابات الأخيرة في إسرائيل من هرج ومرج وشتائم مقذعة متبادلة، **وحول تحوّل الأحزاب والمجموعات في هذه المعركة إلى قبائل** يعدّدها التقرير، تستبيح كل الأساليب، وتذكّر بالخلافات التي نشبت بين أسباط اليهود الاثني عشر قبل قُرابة ألفين وخمسمائة سنة، والتي أطاحت بدولتهم آنذاك على يد نبوخذ نصر، ملك بابل.

وقد رأينا من المفيد ـ تيسيراً لإدراك مدى الصراعات القائمة في إسرائيل منذ أمد طويل حتى اليوم، والتي لا يُرجى لها حل يتفق حوله معظم الإسرائيليين ـ أن نثبت فيما يلي أهم الموضوعات التي يختلف حولها أبناء إسرائيل، على نحو ما لخّصها الدكتور عبد الوهاب المسيري (مؤلّف موسوعة **اليهود واليهودية والصهيونية** التي تقع في ثمانية مجلدات والتي صدرت في القاهرة مؤخراً عن دار الشروق).

وفيما يلي ثبت بما أورده من الموضوعات الأساسية المختلف عليها[٢٦]:

١ ـ ما الموقف من اليهودية؟

ـ عقيدة الشعب اليهودي التي يجب اتباعها.

ـ فولكلور الشعب اليهودي الذي يجب الحفاظ عليه.

ـ تراث ميت يُشكّل عبئاً على الشعب اليهودي لا بد من التخلّص منه.

٢ ـ من هو اليهودي؟

ـ إشكنازي وحسب.

ـ كل يهود العالم.

ـ من يؤمن باليهودية.

ـ من وُلِدَ لأمٍ يهودية.

ـ من يشعر في قرارة نفسه أنه يهودي.

ـ من يكتشف أن جده كان يهودياً.

٣ ـ ما الموقف من ظاهرة العداء لليهودية؟

ـ ظاهرة حتمية أزلية.

ـ ظاهرة سلبية يُمكن القضاء عليها أو تخفيف حدتها.

ـ ظاهرة سببها اليهود أنفسهم (باعتبار أنهم شعب مختار أو شعب طفيلي أو شعب يرفض الاندماج أو شعب ذو وضع طبقي متميّز).

٤ ـ ما طبيعة هذا الشعب اليهودي؟

ـ شعب مقدس.

ـ شعب مختار.

ـ طبقة وسطى هرمها الإنتاجي مقلوب.

ـ مجموعة من الطفيليين.

ـ شعب مثل كل الشعوب.

ـ قومية عضوية.

٥ ـ من ينبغي نقله من أعضاء هذا الشعب (إلى إسرائيل)؟

ـ كل اليهود (وتصفى بذلك الدياسبورا).

ـ الفائض اليهودي البشري وحسب.

ـ فقراء اليهود.

ـ يهود اليديشية.

ـ أي يهودي غير مندمج.

٦ ـ ما سبب النقل (نظرية الحقوق)؟

ـ كي يعود الشعب المختار إلى «أرض الميعاد» ليؤسّس دولته.

ـ كي يعود اليهود (الشعب الشاهد) إلى «أرض الميعاد» حيث يتمّ تنصيره تعجيلاً بالخلاص.

ـ طفيلية اليهود التي لا بد من القضاء عليها (أي تطبيع الشخصية اليهودية).

ـ فائض بشري لا بد من التخلّص منه.

ـ ضحايا دائمون للأغيار.

ـ مادة استيطانية جيدة.

ـ رسل الحضارة الغربية البيضاء الذين سيأتون بالتقدّم ويشكّلون قاعدة الاستعمار الغربي.

ـ تثوير المنطقة على يد الاشتراكيين اليهود عن طريق إقامة مجتمع اشتراكي.

ـ مساعدة الإمبريالية الغربية.

٧ ـ ما طبيعة الدولة الصهيونية؟

ـ وطن قومي وحسب.

ـ دولة رأسمالية.

ـ دولة اشتراكية.

ـ دولة دينية.

ـ دولة فاشية.

ـ دولة مستقلّة عن الغرب.

ـ دولة تابعة للغرب.

٨ ـ ما حدود الدولة؟

ـ قرار التقسيم.

ـ حدود عام ١٩٤٨.

ـ ضفتا نهر الأردن.

ـ من النيل إلى الفرات.

ـ حدود عملية تتحدّد حسب عدد المهاجرين المستوطنين.

ـ حدود جغرافية آمنة.

ـ حدود تحدّدها القوة الذاتية للدولة.

٩ ـ ما وظيفة الدولة؟

ـ دولة قومية للشعب اليهودي.

ـ واحة للديموقراطية الغربية.

ـ مكان لتطبيع اليهود وتخليصهم من طفيليتهم.

ـ قاعدة للاستعمار الغربي (ضد الوحدة العربية وفي مواجهة القومية العربية والشيوعية).

ـ مكان يُحقّق اليهود فيه هويتهم الدينية والإثنية.

ـ مكان يحقق اليهود فيه مستوى معيشياً مرتفعاً.

ـ مركز ثقافي لكل يهود العالم.

ـ قاعدة للنظام العالمي الجديد (ضد الإسلام).

١٠ ـ ما علاقة يهود العالم بالدولة؟

ـ هي الدولة التي يستوطنون فيها والتي عليهم أن يستوطنوا فيها.

ـ دعم الاستيطان.

ـ تكوين مراكز قوة وضغط (لوبي) في بلادهم لدعم الدولة.

ـ التبعية للدولة اليهودية.

ـ تبعية الدولة اليهودية لهم.

ـ الدولة هي مجرد مركز ثقافي لهم.

١١ ـ ما فلسطين؟

ـ أرض الميعاد.

ـ موقع استراتيجي بين آسيا وإفريقيا.

ـ بقعة جيدة للاستثمار.

١٢ ـ ما مصير العرب؟

ـ لا بد من رحيلهم من خلال الإقناع.

ـ لا بد من رحيلهم من خلال العنف.

ـ دولة مزدوجة الجنسية.

ونضيف نحن أن هذه القائمة ليست قائمة جامعة مانعة، وأن ثمة خلافات أخرى متكاثرة ومتوالدة كما رأينا.

الفصل الثامن

الصهيونية وحركات السلام في إسرائيل

مدخل:

لقد تحدثنا حديثاً غير مباشر عن حركات السلام عبر كتابنا هذا، ولا سيما عند حديثنا عن «المؤرّخين الجُدد» وعن مشكلة الهوية في إسرائيل وعن التيار العلماني. غير أن من غير الجائز أن نطوي هذا الكتاب من دون وقفة خاصة ومفصلة عند حركات السلام هذه. لا سيما أن هذه الحركات طرحت وتطرح بشكل جليّ مسائل أساسية وثيقة الصلة بالموضوع الرئيسي في بحثنا، نعني الصراع بين اليهودية والصهيونية. وأهمّ هذه المسائل الأساسية التي تطرحها وتضعها موضع التساؤل والشك هي الآتية:

- موقفها من الصهيونية ومن منطلقاتها الأساسية؛
- دعوتها إلى إعادة تقسيم «أرض إسرائيل» (وإلى مبدأ «الثنائية القومية» بالتالي)؛
- موقفها المعارض إجمالاً للنشاطات الاستيطانية في الضفة الغربية وقطاع غزة؛
- دعوتها إلى السلام مع الفلسطينيين وسائر البلدان العربية (في إطار شروط تحدّدها هي)؛
- نظرتها إلى العلاقة بين دولة إسرائيل وبين يهود الشتات؛
- مفهومها الخاص لهوية إسرائيل، ونظرتها إلى مستقبل إسرائيل.

وسوف نتحدث عن هذه الجوانب جميعها. ولكننا نود، قبل ذلك، أن نلقي نظرة خاطفة على تاريخ هذه الحركة وولادتها، لا سيما أن هذه الولادة تكشف عن ملامحها وعن تطور تلك الملامح.

١ ـ تاريخ حركة السلام وتطوّرها[٢٧]:

١ ـ ١ ـ في أعقاب حرب عام ١٩٦٧، ظهرت حقائق ومشكلات جديدة أمام إسرائيل:

ـ فلقد وجدت فجأة ودون إعداد سابق أنها تفرض حكمها على مليون ونصف المليون من الفلسطينيين، وأدركت أن أي دمج لهؤلاء من شأنه أن يؤدي في خاتمة المطاف إلى تدمير طبيعتها كدولة يهودية.

ـ ثم إن الأراضي التي احتلتها في الدول العربية المجاورة قدمت لها ورقة للمساومة يمكن استخدامها في التفاوض للوصول إلى تسوية سلمية دائمة مع العرب.

ـ يُضاف إلى هذا أن المجتمع الإسرائيلي كان قد انقسم على نفسه بين «صقور» و«حمائم» فيما يتصل بقضية «الأمن مقابل السلام». ومن هنا كان في وسع الجانب المعتدل (الحمائم) أن يضع الأساس لحركة سلام مؤثّرة.

ومع ذلك لم تظهر في ذلك الحين حركة سلام ذات شأن، وكل ما في الأمر أن العقد الذي تلا حرب ١٩٦٧ شهد ظهور جماعات سلام صغيرة، أشهرها «حركة السلام والأمن» التي ظهرت بعد شهر واحد تقريباً من انتهاء الحرب.

١ ـ ٢ ـ وبحلول عام ١٩٧٧ وقع حدثان كبيران هزّا الداعين إلى السلام في إسرائيل، وهما: تسلّم اليمين الإسرائيلي المتطرف سدّة الحكم للمرة الأولى، على أثر الانتخابات البرلمانية التي جرت آنذاك، ثم زيارة الرئيس المصري أنور السادات لإسرائيل بعد ذلك ببضعة شهور سعياً إلى إقامة سلام عربي ـ إسرائيلي (أو مصري ـ إسرائيلي على أقل تقدير). ونتيجة لذلك شعر أنصار السلام بالغبطة وبالقلق معاً، خوفاً من أن تفوت هذه الفرصة المتاحة للسلام مع العرب نتيجة لعدم مرونة مناحيم بيغن في المفاوضات، وإصراره على التمسّك بالضفة الغربية وقطاع غزة تحقيقاً لحلم «إسرائيل الكبرى».

وهكذا ظهرت دعوات من قلب الجيش نفسه ومن قلب المؤسسة الحاكمة نفسها، تدعو بيغن إلى اختيار طريق السلام. وقد أيّدت هذه الدعوات جماهير كبيرة، مما أدى في خاتمة المطاف إلى تنظيم مسيرة جماهيرية في تل أبيب، فوجىء منظموها أنفسهم بأنها حشدت قرابة ٣٥ ألف مؤيد. وقد كانت بين المشاركين مجموعة سلام صغيرة من تل أبيب نفسها، لم تكن بعد مشهورة، تُسمّى **«السلام الآن»**، وهي التسمية التي أطلقت عليها حين أعلن عن قيامها بصورة رسمية بعد أيام قليلة. ومنذ ذلك الحين عرّفت حركة «السلام الآن» نفسها ـ انطلاقاً من رسالة الضباط التي أشرنا إليها ـ بأنها حركة لها ثلاثة ملامح أساسية تحدّد مواقفها وسلوكها، وهي:

ـ **أنها حركة صهيونية** أطلق أعضاؤها على أنفسهم اسم **«الصهيونيين العقلاء»**، الذين يجعلون من الولاء للدولة موضع الاهتمام الرئيسي، والذين يرفضون في الوقت نفسه الصورة التي يقدّمها الجناح اليميني للصهيونية؛

ـ **أنها ليست حركة مسالمة** تنبذ العنف لأسباب دينية أو سواها، وأن أعضاءها على استعداد دوماً للقتل دفاعاً عن أمن إسرائيل؛

ـ **أنها ليست حركة مناهضة للمؤسسة الحاكمة**، كحركات السلام التي ظهرت في الغرب، بل هي جزء من النسيج الاجتماعي والسياسي الإسرائيلي.

٢ ـ حركة «السلام الآن»:

٢ ـ ١ ـ هكذا ندرك أن حركة «السلام الآن» كانت حركة جماهيرية عفوية. أما برنامجها السياسي فقد ظلّ، على مدى فترة من الزمن، مقصوراً على المبادىء التي وردت في رسالة الضباط التي سبق أن أشرنا إليها، وهي:

- أن الحاجة إلى السلام لها الأولوية على الحاجة إلى التمسك بالأراضي المحتلة؛
- أن من غير الممكن تعضيد وجود إسرائيل والحركة الصهيونية عن طريق الهيمنة على شعب آخر؛
- أن المستوطنات تشكّل عقبة على طريق عملية السلام.

وفي مرحلة لاحقة، تبنّت الحركة مبدأين إضافيين، هما:

- أن حل النزاع يكمن في إعادة تقسيم أرض إسرائيل؛
- أن على حكومة إسرائيل أن تعترف بأي ممثل للشعب الفلسطيني يؤمن بأن المفاوضات هي الطريق الوحيد لحل النزاع.

وهذه كلها وسواها لا تشكّل سوى مبادىء، ولا ترقى إلى مستوى برنامج للعمل، على الرغم من الضغوط التي خضعت لها الحركة ـ ولا سيما منذ عام ١٩٨٠ ـ مطالبةً إياها بوضع برنامج عمل محدّد.

٢ ـ ٢ ـ ولعل مما أسهم في نجاح هذه الحركة عفويتها. فلم تكن لها قيادة فردية ولا عضوية رسمية، وحَسْبُ من يريد الانضمام إليها أن يشارك في الأنشطة التي تنظمها.

وقد بدأت الحركة بشبكة من الأصدقاء، ثم اتسعت بعد ذلك فشملت آلاف الأعضاء النشطين، والكثير من الكتّاب المستقلين، إلى جانب أعضاء بارزين في أحزاب سياسية (من أمثال: يائير تساباان من حزب «مابام»، وشولاميت آلوني ويوسي ساريد من حزب «راتس»، ويوسي بيلين من «حزب العمل»)، فضلاً عن شخصيات عامة (مثل: أبا إيبان) وعاملين بالجيش وأساتذة جامعيين وقضاة وفنانين ومحامين وشخصيات دينية.

٢ ـ ٣ ـ وتعمل حركة «السلام الآن»، بعد تطورها، في إطار تنظيم يضم أربع دوائر متحدة المركز: الدائرة الداخلية التي تضم لجنة التنسيق الوطنية؛ والدائرة التي تضم القيادات المحلية والإقليمية؛ والدائرة التي تضم الأعضاء النشطين البارزين (الذين يتراوح عددهم تقريباً بين خمسة آلاف وثمانية آلاف عضو)؛ والدائرة التي تضم المناصرين للحركة.

أما أنشطتها السياسية الرئيسية فتتحلّق حول تنظيم المظاهرات والاجتماعات الجماهيرية الحاشدة. وقد استطاعت عام ١٩٨٢ أن تعبىء ٤٠٠ ألف إسرائيلي في أكبر مظاهرة في تاريخ إسرائيل كانت ضد تورط الحكومة الإسرائيلية في مذبحة صبرا وشاتيلا، مما أدى في نهاية الأمر إلى استقالة وزير الدفاع آنذاك أرييل شارون. وقد نظمت الحركة بعد

ذلك مظاهرات كبرى عديدة (ولا سيما عام ١٩٩٠ وعام ١٩٩١).

والعرائض وسيلة أخرى من الوسائل التي تستخدمها حركة «السلام الآن». هذا فضلاً عن الأنشطة التربوية الكثيرة والمهمّة، وفضلاً عن النشاطات التي تهدف إلى توجيه الرأي العام الغربي ـ والجاليات اليهودية بشكل خاص ـ من أجل تزويدها بالدعم السياسي والمادي.

٢ ـ ٤ ـ ولننتقل الآن إلى الحديث ـ بشيء من التفصيل ـ عن أهم المبادىء والمواقف التي تتبناها حركة «السلام الآن». ونبدأ بموقفها من المشكلة الفلسطينية.

وفي هذا الشأن، يقول عاموس عوز، أحد نشطاء الحركة البارزين: «إن حركة «السلام الآن» ليست حركة مؤيدة للفلسطينيين، بل إنها مجموعة من الأشخاص الذين يؤمنون بأن الحل الوحيد لنزاع إسرائيل مع الشعب الفلسطيني يكمن في الفصل بينهما بهدوء وعدالة وروية. والفصل بينهما يعني أن كلا الجانبين سوف يجب عليه أن يسلخ لنفسه وطناً».

وأفصح دلالةً على موقف حركة «السلام الآن» بهذا الشأن، ما قاله عضو آخر نشيط في الحركة، هو ياكوف تالون في خطاب مفتوح إلى بيغن، رئيس الوزراء آنذاك، جاء فيه: «إن حقوق العرب مسألة لا تخصّني وليست لديّ معلومات أو اهتمام عميق حول ماضيهم أو ثقافتهم. ولكن محور اهتمامي فقط هو إسرائيل وأمنها. فالاتجاه نحو الضمّ لن يؤدي فقط إلى عدم حصولنا على الأمن، بل سوف يستنفد قوانا في الدفاع عن أنفسنا في مواجهة عداء جيراننا واعتراض العالم أجمع على احتلالنا».

وقوله هذا هو الأساس المنطقي الذي يحكم موقف «حركة «السلام الآن» من القضية الفلسطينية. ويزيد في توضيح هذا الأساس تأكيده على الأبعاد الثلاثة التي تنطلق منها الحركة بهذا الشأن وهي: كونها حركة صهيونية في المحل الأول، وإيمانها بأن الصهيونية تمثل حركة «تحرير وطني» للشعب اليهودي، ثم الصيغة التي تقدمها للسلام الإسرائيلي ـ الفلسطيني، وأخيراً اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وبعد تفجّر الانتفاضة واعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بإسرائيل، **تبنت حركة «السلام الآن» الحل القائم على قيام دولتين**، وهاجمت لجوء إسرائيل دون مبرر إلى استخدام القوة داخل الأراضي المحتلة، وأعلنت بأن «الانتفاضة تشكل نضالاً وطنياً».

وهكذا يمكننا القول إن حركة «السلام الآن» قد وضعت في خاتمة المطاف تصوراً لإقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة طبقاً لحدود ما قبل ١٩٦٧ **مع بعض التعديلات**. ذلك أن هذه الدولة ستكون ـ في تصورها ـ منزوعة السلاح ولا تسمح بدخول أي جيش أجنبي إلى أراضيها، كما تلتزم بعدم السماح بتسرّب أي «مخربين» إلى داخل إسرائيل. أما اللاجئون، فإما أن يُسمح لهم بالإقامة في فلسطين أو بالحصول على تعويض. وأخيراً وليس آخراً، **تظل القدس عاصمة إسرائيل**، وإن تكن بعض الأصوات قد أعربت عن موافقتها على جعلها عاصمة مشتركة للدولتين.

وقد أشادت حركة «السلام الآن» بمؤتمر مدريد للسلام، ودعت إسرائيل إلى انتهاز هذه الفرصة. كما أشادت بعد ذلك بـ «اتفاق غزة - أريحا»، ورأت فيه انتصاراً لإسرائيل ومكافأة لها على سعيها من أجل السلام، ونظّمت احتفالاً واسعاً بهذه المناسبة. وقد طمأن عاموس عوز الإسرائيليين بعد هذا الاتفاق قائلاً: «في إطار التسوية المقترحة ستكون إسرائيل في موقفٍ يُمكّنها من الإجهاز على فلسطين وإلغاء الصفقة. **إن إسرائيل ستكون ببساطة قادرة على قهر كيان فلسطيني ضئيل منزوع السلاح**».

٢ - ٥ - ولا شك أن تقويم عمل حركة «السلام الآن» ليس بالأمر اليسير، بعدما رأينا ما أصابها من تطور عبر مراحل حياتها، فضلاً عن صعوبة تقدير مدى الارتباط بين نشاطها وبين نمو معسكر السلام في إسرائيل، على الرغم من أن عاموس عوز يزعم أنها كانت تمثّل، في مرحلة معينة، نصف سكان إسرائيل.

ولا شك في أن الحركة حقّقت في الجملة نجاحات كبيرة، أولها وأهمّها أنه لم يسبق لأي حركة سلام في إسرائيل أن استطاعت تعبئة هذا العدد الكبير من المواطنين. ولكن الكثير من المحللين الذين أشادوا بإنجازاتها، أشاروا إلى إخفاقها في تحويل الرأي العام الإسرائيلي إلى أن يصبح أكثر استعداداً للموافقة على أي تسوية مع الفلسطينيين قوامها انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وقطاع غزة، ناهيك عن قبول صيغة الدولتين.

٣ - السلام وكتلة «ميريتس»:

للمرة الأولى في تاريخ إسرائيل، أدّت انتخابات عام ١٩٩٢ إلى أن يدخل في مجلس الوزراء ممثلون لما يُطلق عليها اسم «كتلة السلام» في تحالف مع «حزب العمل». والمقصود بتلك الكتلة دعاة السلام العربي - الإسرائيلي الذين يدعون إلى تسوية تضمن قيام دولتين، ونعني بهم أعضاء تحالف «ميريتس» الذي أنشىء عام ١٩٩٢ من ثلاثة أحزاب منفصلة هي: «المابام» و«راتس» و«شينوي».

٣ - ١ - وفيما يتصل بحزب **«المابام»**، شهد النصف الثاني من الثمانينيات تحولاً في موقفه من العرب الفلسطينيين، نتيجة لثلاثة عوامل هي: انسحاب «المابام» من تحالف «العمل»، وميله نحو المجموعات الأكثر اعتدالاً؛ والانتفاضة الفلسطينية؛ وقطع الملك حسين العلاقة بين الأردن والضفة الغربية. الأمر الذي أقنع «المابام» - كما أقنع حركة «السلام الآن» - بتصميم الفلسطينيين على الحصول على دولتهم المستقلة. يُضاف إلى هذا أخيراً اعتراف ياسر عرفات بدولة إسرائيل. وهكذا عادت كتلة «المابام» - في برنامجها الانتخابي لعام ١٩٨٨ - إلى الاعتراف بأن «أرض إسرائيل» هي الوطن المشترك للشعب اليهودي العائد وللشعب العربي الفلسطيني المقيم فيها، مؤكدةً حق كلا الطرفين في تقرير مصيرهما الوطني فوق هذه الأرض، على أساس الاعتراف المتبادل والتوصل إلى حلّ وسط.

٣ ـ ٢ ـ أما حركة «راتس» (حركة حقوق المواطنين)، فهي الحزب الثاني في كتلة «ميريتس» (وهو لفظ مشتق من الحروف الأولى من اسمها بالعبرية). وقد أنشأت هذا الحزب عام ١٩٧٣ زعيمته شولاميت ألوني (كحزب منشق عن «حزب العمل» الذي كانت عضواً فيه). وفي عام ١٩٨٤، انضمّ إليه نجمٌ آخر غدا منافساً لألوني على زعامة الحزب، هو يوسي ساريد، الذي وصفته صحيفة معاريف الإسرائيلية (في عددها الصادر بتاريخ ١٥/ ٩/ ١٩٩٢) بأنه «الأمير غير المتوّج لليسار الإسرائيلي». فبعد وصول كتلة الليكود إلى الحكم عام ١٩٧٧، انتقد ساريد السياسات الإرهابية والعنصرية للحكومة اليمينية والمستوطنين ضد الشعب الفلسطيني في إسرائيل والأرضي المحتلة، وعارض عام ١٩٨٢ غزو لبنان، وكان يرى أن أفضل حل للمشكلة الفلسطينية هو إقامة اتحاد كونفدرالي بين الضفة الغربية والأردن، مع عدم استبعاد قيام دولة فلسطينية.

٣ ـ ٣ ـ وأما الكتلة الثالثة في تحالف «ميريتس» ونعني بها حزب «شينوي» (أي التغيير)، فقد ولد عام ١٩٧٤ بعد انسحاب عضو بحزب العمل من ذلك الحزب وتشكيله كتلته الخاصة به. وكان المنشق هذه المرة هو عمنون روبنشتاين، وهو أستاذ للقانون. وقد شارك الحزب في حكومة الوحدة الوطنية وتولّى فيها روبنشتاين منصب وزير المواصلات. وقد كان قبل انضمامه إلى كتلة «ميريتس» أقلّ الأحزب الثلاثة استعداداً لتقديم «تنازلات» للعرب في مقابل السلام. ولم يكن يؤمن بأن للفلسطينيين أي حق في «أرض إسرائيل» المزعومة، سوى أنه كان يرى مع ذلك أن على الدولة اليهودية ـ إذا هي أرادت العيش بسلام وأن تتجنب تحوّلها الفعلي إلى دولة ثنائية القومية ـ أن تكون مستعدة للانسحاب من بعض مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة التي تشتد فيها كثافة السكان العرب. وعلى الرغم من تصويت الحزب في الكنيست عام ١٩٨١ ضد قرار ضم مرتفعات الجولان لعدم رغبته في «استثارة» سورية، فإن برنامجه الانتخابي لعام ١٩٨٨ دعا إسرائيل إلى عدم الانسحاب منها لضمان أمنها في الجزء الشمالي و«لحماية مواردها من المياه».

٣ ـ ٤ ـ بعد دخول هذه الأحزاب الثلاثة الانتخابات البلدية عام ١٩٨٩، وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وبعد انعقاد مؤتمر مدريد للسلام في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١، غدا الجو ملائماً لإنشاء ائتلاف برلماني فيما بينها لدخول انتخابات عام ١٩٩٢، ولتكوين كتلة «ميريتس» بالتالي.

وقد أكدت هذه الكتلة، في برنامجها الانتخابي، على ضرورة إيجاد تسوية سياسية مع الفلسطينيين والعرب بوجه عام، استناداً إلى الأسس الآتية:

ـ إن فرض أمةٍ ما حكمها على أمة أخرى أمر غير مقبول من الأساس، وإن الاحتلال الطويل للأراضي يزيد في تهديد الطبيعة الديمقراطية لدولة إسرائيل ويولّد واقعاً خطيراً وهو إقامة دولة ثنائية القومية؛

- على إسرائيل أن تعترف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره في الضفة الغربية وقطاع غزة (مقابل اعترافه بحق إسرائيل في الوجود الآمن والسيادة الكاملة)؛

- يقرر الشعب العربي الفلسطيني بنفسه الشكل الذي يكون عليه تقرير المصير؛

- إن التقدم في عملية السلام سوف يجبر الفلسطينيين على التخلي علّناً عن «حق العودة» إلى إسرائيل؛

- إن إقامة حكم ذاتي في الأراضي المحتلة هو الهدف القريب والعاجل، شريطة أن يكون حكماً كاملاً وأن يُستخدم كفترة انتقالية مؤقتة إلى حين التوصل إلى حل دائم؛

- على إسرائيل أن تعتمد قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ (الأرض مقابل السلام) وأن تتوقف عن الاستيطان فوراً؛

- إن الاستيطان في الأراضي المحتلة ومرتفعات الجولان يُعتبر الآن أكبر عقبة في طريق الترتيبات الدائمة والمؤقتة.

ويقول عمنون روبنشتاين إن هناك أمراً واحداً رفضته كتلة «ميريتس» ولم يرد له ذكر في برنامجها، هو العودة إلى حدود ١٩٦٧.

وقد حصل تحالف «ميريتس» هذا على ١٢ مقعداً في انتخابات الكنيست عام ١٩٩٢، وأصبح بالتالي مؤهلاً للانضمام إلى «حزب العمل» لتشكيل الوزارة. وقد كان له في بداية الأمر ثلاثة وزراء: تسابان الذي تولى وزارة استيعاب المهاجرين، وألوني للمواصلات والعلم والتكنولوجيا، وروبنشتاين للتربية والثقافة. وبعد انسحاب حزب «شاس» من الحكومة الائتلافية، عُيِّن يوسي ساريد وزيراً للبيئة.

٣ - ٥ - ولقد كان لوزراء حركة «ميريتس» الأربعة أثناء وجودهم في السلطة بعض المواقف الجادة، ووقعت مواجهات بينهم وبين «حزب العمل» بعد تشكيل الحكومة بوقت قصير:

فقد طالب أعضاء الوزارة المنتسبون إلى كتلة «ميريتس» رئيس الوزراء آنذاك إسحق رابين برفع الحظر عن التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية. وبعد أشهر قليلة، في صيف عام ١٩٩٣، هاجمت إسرائيل جنوب لبنان فيما أُطلق عليه اسم «عملية الحساب» (وكانت تلك العملية - كما نعلم - أعنف اعتداء تقوم به إسرائيل على لبنان منذ غزوها له عام ١٩٨٢، وقد أسفرت عن سقوط ١٣٠ قتيلاً و٤٥٠ جريحاً وتشريد أربعمائة ألف مواطن وتدمير خمس وخمسين قرية وبلدة). وقد رفضت كتلة «ميريتس» التصويت في الكنيست تأييداً لذلك الهجوم. كذلك اتخذت كتلة «ميريتس» موقفاً صلباً وأكثر تشدداً من «حزب العمل» عندما أقدم المتطرف اليميني الإسرائيلي باروخ غولدشتاين على ارتكاب المذبحة المريعة ضد المصلين في الحرم الإبراهيمي في الخليل، التي قُتل خلالها ٢٦ شخصاً. وعلى أثر الحادث دعت شولاميت ألوني - في معرض هجومها على النظام التعليمي الديني الذي

يُخرِّج معادين للعرب ـ الحكومة الإسرائيلية والشعب الإسرائيلي إلى الوقوف وقفة حازمة ضد المستوطنين المسلّحين وإلى معاملتهم كما يُعامل «الإرهابيون» العرب المسلمون! وقد وقف أعضاء مجلس الوزراء من كتلة «ميريتس» ضد قرار رابين بمصادرة ٥٣٠ دونماً من الأراضي العربية لبناء مساكن لليهود في القدس الشرقية، وهو أكبر عمل من نوعه منذ عام ١٩٨٠. وقد كشف تسابان، وزير الاستيعاب، عن حقيقة صارخة في هذا المجال، وهي أن ٨٥٪ من الأرض التي صادرتها إسرائيل في القدس منذ عام ١٩٦٧ كانت مملوكة للعرب، وأن ٣٥ ألف شقة سكنية شيدتها الدولة في هذا الجزء من المدينة أعطيت كلها إلى اليهود ولم يظفر العرب بشقة واحدة منها.

وقد كان أعظم انتصار لـ«ميريتس» التوقيع على إعلان المبادىء بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣، وهي خطوة أيدتها «ميريتس» تأييداً كاملاً.

وعلى الرغم من رغبة كتلة «ميريتس» في أن يكون لها دور حاسم في إقامة السلام ـ على غرار ما تفهمه ـ فقد أدت بعض مواقفها بعد أشهر من تشكيل الحكومة إلى إحداث صدمة عنيفة في أوساط مؤيديها، لا سيما حين وافقت على قرار رابين بإبعاد ٤١٥ عضواً من أعضاء حركتي «حماس» و«الجهاد الإسلامي» إلى لبنان، في إطار عملية تُعدّ أكبر عملية ترحيل في تاريخ إسرائيل (بعد حرب ١٩٤٨). وقد أدى موقف الكتلة هذا إلى انحسار صورتها في أعين المتعاطفين معها، ولا سيما من الشباب الذين اتهموها بأنها باعت نفسها لرابين. وظهر رد فعل مماثل من حركة «السلام الآن» التي كان نشاطها قد تضاءل بعد انضمام كتلة «ميريتس» إلى الحكومة، والتي اضطرت إلى الخروج ثانيةً إلى الشوارع للتنديد بالقرار.

ولم تكن قضية الإبعاد هذه هي الحالة الوحيدة التي أظهرت تراجع حركة «ميريتس»، فلقد أخفقت بوجه عام في الوفاء بعهودها، ولا سيما فيما يتصل بحقوق الإنسان، حين سمحت لنفسها بأن تكون شريكاً في حكومة كان لها «أسوأ سجل لحقوق الإنسان في تاريخ إسرائيل» على حد قول حاييم بارام Haïm Baram (في مقالٍ له في صحيفة *Middle East International*، العدد ٤٧٦، بتاريخ ٢٧ أيار/ مايو ١٩٩٤). وفي خاتمة المطاف، أدّت مشاركة «ميريتس» هذه في حكومة رابين وفي ما ارتكبته من خسف وعنف إلى خلاف حاد مع منظمة «بتسيلم» لحقوق الإنسان، التي كان أعضاء «ميريتس» أنفسهم قد أنشأوها قبل بضع سنوات من أجل أن يكشفوا للرأي العام انتهاكات حكومة الليكود لحقوق الإنسان. وقد شعر ساريد وزوكير بالغضب الشديد حين نشرت هذه المنظمة تقريراً في تموز/ يوليو ١٩٩٣ أعلنت فيه أن الأشهر الستة الأولى من حكومة رابين ـ ميريتس قد شهدت مصرع ٣٢ طفلاً فلسطينياً قُتلوا على أيدي الجنود الإسرائيليين في الأراضي المحتلة «في مواقف لم تكن فيها حياة الجنود في خطر طبقاً للبيانات

الرسمية». وفي العام نفسه أثارت حركة «السلام الآن» هذه القضية مرة أخرى، ونشرت بياناً استنكرت فيه مقتل خمسة آخرين من الأطفال في غزة على يد الجنود الإسرائيليين. وقد اتسع الشقاق بين «ميريتس» وجماعات السلام التي كان من المفترض أنها تمثّلهم، ولا سيما حين مضت حكومة رابين في سلوكها الوحشي ضد الشعب الفلسطيني (كإغلاق الأراضي المحتلة ومنع عشرات الآلاف من الفلسطينيين من كسب عيشهم في إسرائيل، وعدم احترام «اتفاقات أوسلو»، لا سيما فيما يتصل بإطلاق سراح السجناء الفلسطينيين، واستخدام فرق القتل ضد الفلسطينيين المشتبه بهم). وفي عام ١٩٩٤ وصل الأمر بوزراء كتلة «ميريتس» إلى حدّ تهنئة رابين على اختطاف مصطفى الديراني، أحد قادة المقاومة، من منزله في لبنان. ومثل هذا فعلته الحركة حين قتلت إسرائيل يحيى عيّاش، المهندس الفلسطيني من حركة «حماس»، الذي وصفته بأنه كان «عقبة مهمّة في طريق السلام».

وزاد ضغثاً على إبالة إخلاف حركة «ميريتس» بوعودها الخاصة بالمستوطنات. فلقد كانت ترى فيها ـ كما قلنا ـ عقبة أساسية في وجه السلام. وقد وعد رابين نفسه بوقف النشاط الاستيطاني أثناء سير عملية السلام. ولكن وعده هذا لم يُطبّق على المناطق المحيطة بالقدس ووادي الأردن، كما أنه لم يفرض الحظر على بناء القطاع الخاص لمستوطنات جديدة أو توسيع المستوطنات القائمة. وهكذا استمر النشاط الاستيطاني بدون توقف خلال فترة حكم رابين ـ ميريتس. وقد بيّن تقرير حول سياسات إسرائيل الاستيطانية نشرته «مؤسسة السلام في الشرق الأوسط»، ومقرّها الولايات المتحدة (نُشر في **مجلة الدراسات الفلسطينية**، في ربيع عام ١٩٩٥) أن خطط حكومة رابين الإنشائية في الضفة الغربية والقدس «تنافس إن لم تكن تفوق في بعض النواحي جهود حكومة شامير في بناء المستوطنات خلال الفترة من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٢».

وهكذا وقعت كتلة «ميريتس» فريسة لتناقضاتها، وأصبحت أمام واقع مُرّ عليها أن تواجهه وهي تبدأ حملتها الانتخابية عام ١٩٩٦: فلقد وصلت إلى التفكك بعد أن قرّرت شولاميت آلوني اعتزال الحياة السياسية والتخلّي عن القيادة ليوسي ساريد الذي كان قد تحوّل إلى «صقر» متشدد داخل حزبه. فبعد أن كان لها ١٢ مقعداً في الكنيست عام ١٩٩٢، تقلّص العدد إلى ٩ مقاعد عام ١٩٩٦، ولم يتجاوز ١٠ مقاعد في الانتخابات الأخيرة عام ١٩٩٩.

وهكذا نجد في خاتمة المطاف أن تجربة «المابام»، ومن بعدها بأربعة عقود تجربة «ميريتس»، تشير إلى أن المعسكر الذي يُدعى «معسكر السلام» في إسرائيل محكوم عليه بالوقوع في أمرين أحلاهما مرّ: إما الحفاظ على شخصيته وتماسكه والبقاء مهمّشاً في صفوف المعارضة، أو الوصول إلى الحكم شريطة أن يغدو جزءاً من الإيديولوجية الأساسية

لدولة إسرائيل وللصهيونية من ورائها. وهذا الخيار الأخير هو الذي جنح إليه هذا المعسكر وسار نحوه ولو متثاقلاً.

٤ ـ نظرة تقويمية شاملة لحركات السلام:

يستبين لنا من العرض الموجز السابق لحركات السلام (وللحركات الداعية إلى الثنائية القومية بوجه عام) أن هذه الحركات أخفقت في توليد بديل حقيقي للتيار الصهيوني الرئيسي، قادر على إيجاد حل توفيقي للصراع العربي ـ الإسرائيلي.

ويرجع السبب الرئيسي لهذا الإخفاق إلى الموقف الإيديولوجي الذي تبنته هذه الحركات، ونعني به تأييدها للصهيونية، على الرغم من الخلاف بينها وبين أفكار التيار الرئيسي الصهيوني. فالصهيونية في نظر أتباع حركات السلام وفي نظر القائلين بالثنائية القومية «حركة تحرير وطني» تسعى إلى تجميع يهود العالم في «أرضهم الموعودة»، وإنشاء دولتهم فيها. وهي لا تهدف إلى إقامة وطن ثقافي على نحو ما تصوره آحاد هاعام ـ كما سبق أن رأينا ـ بل إلى إنشاء وطن سياسي وقومي في صورة دولة يهودية تتولى «تحرير اليهود من عبء الإقامة والعيش وسط شعب آخر». **وفي هذا الإطار يتعارض أي أنموذج يبنى على التوفيق بين الحقوق اليهودية والحقوق العربية في فلسطين تحديداً مع المعتقدات الصهيونية الأساسية.**

هذا التناقض هو الذي وقعت فيه الجماعات المؤيدة للسلام والمؤيدة للثنائية القومية والتقسيم. فقادة هذه الجماعات هم أولاً، وقبل كل شيء، صهيونيون متّقدو الحماس وإسرائيليون صالحون، وإنْ اختلفوا مع التيار الرئيسي الصهيوني. وعلى الرغم من أنهم كانوا يشعرون من وقت لآخر بالحاجة لمعالجة المشكلة الفلسطينية، **فإنه لم يكن بينهم من يجرؤ على الإقدام على ذلك على حساب الأهداف الصهيونية**، لا سيما أن معظمهم يؤمنون بأن حق اليهود في فلسطين أقوى من حق العرب فيها. كذلك لم يُقدموا على تحدّي الإجماع الصهيوني فيما يتصل بالقضايا الأساسية في النزاع العربي ـ الإسرائيلي: فإسرائيل لا بد أن تظل دولة يهودية، وأمن إسرائيل له الأولوية القصوى، وحرب ١٩٦٧ لها ما يبررها تماماً، والقدس لا بد أن تبقى عاصمة الدولة اليهودية، وحرب لبنان كانت خطأً ولكن كان على الجنود الإسرائيليين أن يخوضوها وألا يتحدّوا أوامر الدولة، والجيش الإسرائيلي مُطالب أيضاً بالخدمة في الأراضي المحتلة حتى لو كان الاحتلال شراً على الفلسطينيين.

وهكذا، **فإن عجز دعاة السلام عن التوفيق بين قيمهم الصهيونية وبين تأييد الحقوق الفلسطينية**، قد وضعهم في مأزق، وهو أن يتخلّوا عن أحد المطلبين لصالح الآخر. أما الإصرار على الجمع بين الموقفين المتعارضين، فقد أضعف مصداقية هذه الحركات ووضع رؤيتها السياسية موضع الشك، وجعلها بالتالي تفشل في تحقيق رسالتها.

والحق، أن دعوة أنصار السلام هؤلاء إلى التخلي عن الأراضي المحتلة من أجل السلام، لا يرجع إلى أنهم أقلّ اهتماماً من سواهم بأمن إسرائيل، بل يرجع إلى أنهم يؤمنون

بفرصتين أساسيتين: **إحداهما** أن السلام يخدم أمن إسرائيل بصورة أفضل من الحرب؛ **والثانية** أن «ما يُسهم في وجود إسرائيل قوية ليس الاحتفاظ بقناة عرضها ثلاثة أمتار ومثيرة للسخرية تسمى نهر الأردن، بل توافر جيش قوي. ولهذا فإن الحاجة إلى الأرض تافهة، إذا ما قُورنت بنوع الجيش ومعنوياته ونوع الرجال الذين يخدمون فيه».

على أن هذه الحركات، على الرغم من هذا كله، قد خلّفت آثاراً نفسية وفكرية لدى عامة الشعب الإسرائيلي، ولعلّها خفّفت من حدّة المواقف الإسرائيلية العنيفة ضد الشعب الفلسطيني لدى شريحة لا يُستهان من الإسرائيليين. بل لعلّها ولّدت أزمة وجدان وضمير لدى الكثير من مواطني إسرائيل. وأهم من هذا وذاك ما كان لها من أصداء في الأوساط العالمية والدولية، وما أدّت إليه من تغيّر في موقف كثير من مثقفي الغرب من الصراع العربي ـ الإسرائيلي، على الرغم من أنها قد تخدع بعض مثقفي الغرب هؤلاء حين تجعلهم يحسبون أن ثمة نزعة جادّة لدى بعض الأوساط الإسرائيلية إلى إنصاف الفلسطينيين، وإلى التعايش السلمي بينهم وبين يهود إسرائيل، في إطار دولة ديمقراطية ثنائية القومية.

على أنها ـ في أية حال ـ قد ساعدت على التخفيف من غلواء المنازع اليمينية المتطرفة، ومن تزمت الحركات الدينية، بل حتى من بعض صلف المؤسسة العسكرية ووحشيتها في دولة «مُعسكرة» حتى الأحشاء.

الفصل التاسع

الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة والصراع حول هوية إسرائيل

مدخل:

لا شك في أن كل ما أتينا عليه مما يجري داخل المجتمع الإسرائيلي من تمزق وشقاق، ومن صراع بين التيارات المختلفة والفئات المتعدّدة، ومن تنازع بين العلمانيين وأتباع حركات السلام و«المؤرّخين الجدد» والقائلين بما بعد الصهيونية من جانب، وبين غُلاة المتدينين والمنادين بالقومية الصهيونية والمستمسكين بالمنطلقات الأساسية للصهيونية من جانب آخر، قد تجلّى واضحاً وجآر أمام الأعين أثناء انتخابات الكنيست الخامسة عشرة الأخيرة التي جرت في ١٧ أيار/ مايو ١٩٩٩.

فالانتخابات السابقة منذ عام ١٩٧٧ كانت حلبة الصراع فيها بين الحزبين الكبيرين بوجه خاص، نعني: حزب «العمل» وحزب «الليكود»، بينما كانت الأحزاب الصغيرة من دينية وعلمانية قليلة الشأن. أما الانتخابات الأخيرة فقد غيّرت الصورة تغييراً واضحاً، وكشفت عن الصراعات الدينية والعرقية وسواها من الصراعات الكثيرة التي تنخر في كيان المجتمع الإسرائيلي، وبدت فيها إسرائيل مجتمعاً فسيفسائياً يتكوّن من مجموعات غير متجانسة، وأبرزت تنظيمات كثيرة صغيرة تعبّر عن مصالح اجتماعية ضيّقة لبعض الفئات. ولم يعد اليوم في إسرائيل حزبٌ يمكن أن يُطلق عليه حزب الأكثرية، ولم يعد في مقدور الحزبين (العمل والليكود) تشكيل حكومة وحدة وطنية تحظى بتأييد الكنيست من دون الاستعانة بالأحزاب الصغيرة. والجهود الكبيرة التي بُذلت ـ قبل الانتخابات وبعدها ـ من أجل تكوين حزب كبير موحَّد لم تلقَ نجاحاً حقيقياً. فعلى الرغم من الإعلان عن قيام حزب جديد باسم حزب «إسرائيل واحدة» (إسرائيل أحاد). وذلك في «قصر الأمة» بالقدس بتاريخ ٢١ آذار/ مارس ١٩٩٩، وما صاحب ذلك الإعلان من أهازيج الفرح، لم يؤدِّ الأمر إلى تكوين حزب موحّد ذي شأن. وكل ما هنالك أن أحزاباً صغيرة، هي أحزاب «أحدوت هاعفودا» و«غيشر» و«ميماد» اتفقت على أن تقدم لائحة واحدة مع حزب العمل في انتخابات الكنيست الخامسة

عشرة في ١٧ أيار/ مايو ١٩٩٩. ولم يؤدِ هذا على أية حال إلى «زواج» فعلي بين هذه الأحزاب، بل احتفظ كل منها بكيانه الخاص مُرجئاً الزواج إلى أجل غير مسمّى.

يُضاف إلى هذا أن قانون الانتخاب الذي ينصّ على أن يجري انتخاب رئيس الوزراء مباشرة من قبل الشعب بدلاً من الكنيست، فتح المجال واسعاً أمام التناقضات والاتجاهات المتعددة في إسرائيل، وولّد تفتتاً لا حدّ له، وقلّل من قيمة التصويت للأحزاب الكبيرة، وأعطى للفرد والعائلة والطائفة والانتماء العرقي القديم والمصالح الخاصة وسواها من مظاهر الانتماء شأناً أكبر من شأن الحزب، الأمر الذي جعل قادة الحزبين الكبيرين في الانتخابات الأخيرة يتنافسون على استقطاب أصوات العرب المقيمين في إسرائيل، وأصوات اليهود الشرقيين (السفارديم)، وأصوات المهاجرين الروس وسواهم.

١ ـ نظرة سريعة إلى الأحزاب الإسرائيلية عند الانتخابات الأخيرة:

لا شك في أن جانباً من التشتت الإسرائيلي والصراع الداخلي فيها تجلّى في بنية الائتلافات الحزبية التي خاضت معركة انتخابات الكنيست في ١٧ أيار/ مايو ١٩٩٩، مع ذكر عدد المقاعد التي حصلت عليها. وسنكتفي هنا بسرد أسماء هذه الأحزاب مع عدد المقاعد التي حصلت عليها في انتخابات عام ١٩٩٩، والمقارنة بينها وبين عدد المقاعد التي نالتها في الانتخابات السابقة في عام ١٩٩٦:

الحزب	١٩٩٩	النسبة المئوية من المجموع	١٩٩٦	النسبة المئوية من المجموع
١ ـ إسرائيل واحدة (حزب العمل وحلفاؤه)	٢٦	٢١,٧٪	٣٤	٣٢,٤٪
٢ ـ الليكود (اليمين المتطرف)	١٩	١٥,٨٪	٢٣	٢١,٩٪
٣ ـ شاس (اليهود الشرقيون)	١٧	١٤,٢٪	١٠	٩,٥٪
٤ ـ ميريتس (علمانيون يساريون)	١٠	٨,٣٪	٩	٨,٦٪
٥ ـ إسرائيل بعليا (مهاجرون روس)	٦	٥,٠٪	٧	٦,٦٪
٦ ـ شينوي (علمانيون وسطيون)	٦	٥,٠٪	-	-
٧ ـ حزب الوسط (أو المركز) (حزب موردخاي)	٦	٥,٠٪	-	-
٨ ـ الحزب القومي الديني (المفدال ـ ديني ويميني)	٥	٤,٢٪	٩	٨,٦٪
٩ ـ إسرائيل بيتنا (يميني)	٤	٣,٣٪	-	-
١٠ ـ الوحدة الوطنية (قومي متطرف)	٤	٣,٣٪	-	-
١١ ـ يهدوت هتوراه (متدينون)	٥	٤,٢٪	٤	٣,٨٪
١٢ ـ حداش (شيوعي ـ عرب ويهود)	٣	٢,٥٪	٥	٤,٨٪
١٣ ـ اللائحة العربية الموحدة (عرب)	٥	٤,٢٪	٤	٣,٨٪
١٤ ـ التجمع الوطني الديمقراطي (عرب)	٢	١,٦٪	-	-
١٥ ـ شعب واحد (عمال)	٢	١,٦	-	-
المجموع:	١٢٠	١٠٠٪	١٠٥	١٠٠٪

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى تاريخ نشأة أهم هذه الأحزاب وإلى ما تدلّ عليه التسميات التي أطلقت على كل منها:

ـ **حزب العمل**: تأسس عام ١٩٨٨، وقد شكّل، أثناء الانتخابات الأخيرة، مع أحزاب ثلاثة أخرى (سبقت الإشارة إليها) قائمة انتخابية مشتركة عُرفت باسم «إسرائيل واحدة».

ـ **حزب ميريتس**: ويعني الطاقة، وقد ظهر عام ١٩٩٢ على أثر ائتلاف حركات ثلاث سبق الحديث عنها (المابام ـ راتس ـ شينوي).

ـ **حزب الليكود**: وهو حصيلة اندماج لعدد من الأحزاب اليمينية والقومية المتطرفة، بما فيها حزب «حيروت» (الحرية) الذي أسّسه الزعيم الصهيوني زئيف جابوتنسكي.

ـ **شاس**: (ويعني حراس التوراة)، وقد تأسس عام ١٩٧٠، ورئيسه آريي درعي، المحكوم عليه بجرائم ثلاث. وهو حزب ديني وصهيوني متشدد، يطمح إلى أن يعيد لليهود الشرقيين (السفارديم) سابق شأنهم. ومن الخصائص المميزة لسياسته أنه يوافق على التخلّي عن بعض الأراضي المحتلة، حقناً لدماء اليهود.

ـ **إسرائيل بعليا**: (وتعني هذه التسمية حرفياً «إسرائيل نحو المزيد»، (أي نحو المزيد من التكاثر)، وذلك للتأكيد على أهمية الهجرة (عليا). وهو حزب المهاجرين الروس.

ـ **الحزب القومي الديني (المفدال)**: وهو من أبرز أنصار اتحاد اليهودية مع الصهيونية منذ عام ١٩٢٠، ويعارض بالتالي فصل الدين عن الدولة، ويؤمن بـ«أرض إسرائيل» المزعومة، ويعارض قيام دولة فلسطينية، ويتنصر لسكان المستعمرات بوجه خاص.

ـ **يهدوت هتوراه**: وهو ائتلاف ديني من المتدينين الحسيديين، يتكون من اجتماع حزبين: حزب «آغودات إسرائيل» وحزب «متناغديم» المعارض لحزب «ديغل هاتوراه» (علم التوراة).

وإذا نحن أردنا أن نصنّف هذه الأحزاب تبعاً لاتجاهاتها الرئيسية، أمكننا أن نردّها إلى ست فئات(٢٨):

أولها وأبرزها اليهود الشرقيون (السفارديم) الذين يعانون من احتقار اليهود الغربيين، وقد وصفتهم إحدى المسؤولات في حزب العمل الإسرائيلي بأنهم «أوباش». **والفئة الثانية** هي فئة المتدينين المتطرفين وينقسمون إلى مجموعتي ضغط: حزب «شاس» للسفارديم، وحزب «يهدوت هتوراه» للأشكِناز، ويطالبون بالتطبيق المتشدد للتعاليم الدينية اليهودية، وبالحصول على تسهيلات مالية جديدة لمدارسهم ومؤسساتهم. **والفئة الثالثة** هي فئة اليهود غير المتدينين (العلمانيين) الذين يهاجمون المتدينين المتطرفين. **والفئة الرابعة** هي فئة الإسرائيليين اليمينيين المتطرفين والمنتشرين بوجه خاص في مستوطنات الضفة الغربية وقطاع غزة. **والفئة الخامسة** هي التي تضم فلسطينيي عام ١٩٤٨. **والفئة السادسة** هي الفئة التي تضم المهاجرين الذين قدموا من الاتحاد السوفياتي السابق، وهم يمثلون زهاء ١٤٪ من

الناخبين الإسرائيليين، ويمثّلهم حزب «إسرائيل بعليا».

وهذا كله يشير إلى تبعثر النتائج وتشتتها بين أحزاب كثيرة (معظمها صغيرة) وإلى ما جرى بينها من صراع عنيف خلال المعركة الانتخابية الأخيرة، جعل بعضهم يصفها بأنها حملة تحولت إلى شتائم (لم يتورع أصحابها عن استخدام تعابير مثل: أوباش ـ عنصري ـ نازي ـ خائن. . .).

٢ ـ نظرة تحليلية إلى الأحزاب المتصارعة خلال الانتخابات الأخيرة:

من خلال هذا العرض الخاطف، يستبين لنا مدى تشتت المجتمع الإسرائيلي خلال معركة الانتخابات الأخيرة بوجه خاص. لا سيما إذا ذكرنا أن أكثر من ستين حزباً سياسياً رغبت في تقديم مرشحين عنها لتلك الانتخابات، وأن ٣٣ قائمة تقدّمت بطلب رسمي لهذه الغاية في شهر آذار/ مارس، تم اختيار خمس عشرة قائمة منها فقط في ١٧ أيار/ مايو هي القوائم التي أشرنا إليها. وقد رأى بعضهم في تكاثر قوائم المرشحين على هذا النحو دليلاً على عافية النظام الديمقراطي في إسرائيل، بينما وجد فيه آخرون دليلاً على **تمزق الفئة الحاكمة التقليدية**. فقبل خمسة عشر عاماً، كان يستقطب السياسة الإسرائيلية حزبان: حزب يميني هو حزب الليكود، وحزب يساري هو حزب العمل. وقد تضاءل عدد مقاعد الحزبين فلم يحصلا إلاّ على ٥٦ مقعداً (حوالى ٥٤٪ من مجموع مقاعد ذلك الكنيست وعددها ١٠٥ مقاعد) في انتخابات عام ١٩٩٦، وعلى ٤٥ مقعداً (٣٧,٥٪ من مجموع المقاعد وعددها ١٢٠ مقعداً) في الانتخابات الأخيرة عام ١٩٩٩.

ويعني ذلك أن الإسرائيليين فقدوا الثقة في القيادات السياسية التقليدية، وغدوا يفضلون اللجوء إلى عشرات الأحزاب الصغيرة المتكاثرة من أجل أن يحققوا عن طريقها مصالحهم القطاعية. وكانت النتيجة أن كل ذي مشكلة أنشأ حزباً، فهنالك حزب للنساء، وثلاثة أحزاب لحماية البيئة، وثلاثة أحزاب دينية متشددة، وأربعة أحزاب عربية، وحزب للرجال، وحزب لليهود ذوي الأصل المغربي، وحزبان روسيان، وحزب ضد إعادة الجولان، وحزب للقادمين من رومانيا، وحزب لليمنيين، وحزب للمتقاعدين، وحزب لإحدى ملكات جمال إسرائيل سابقاً، وحزب ضد الضرائب، وحزب من أجل الاعتراف الشرعي بالكازينوهات. . إلخ.

ويعزو علماء الاجتماع في إسرائيل هذا التمزق السياسي والاجتماعي إلى **الفشل الذريع لعملية المزج والصهر**، أو البوتقة melting pot، التي جرت في إسرائيل خلال الخمسينيات، تلك العملية التي أرادت أن تجعل من المجتمع الإسرائيلي وحدة متجانسة. ومنذ سنوات ليست بعيدة كانت فكرة إنشاء حزب سياسي قطاعي يمثّل شريحة من المجتمع، تبدو في أعين الكثيرين ظاهرة سلبية، بل ضرباً من الإنكار لوحدة الشعب، وخطراً يهدّد مصير الصهيونية. أما اليوم، فلقد تغيّرت النظرة،

وانتصرت النزعة القَبَلية على نزعة «الانتماء الإسرائيلي» على حد تعبير شمعون بيريس. أوَلَم تصف صحيفة **يديعوت أحرونوت** (في عددها الصادر بتاريخ ٢٨/١/١٩٩٩) ميزانية دولة إسرائيل بأنها «ميزانية قَبَلية»، تتنازع حظوظها مصالح العديد من «القبائل» التي غدت تسيطر على الوجود الإسرائيلي؟ فهنالك القبيلة الروسية التي تريد مساكن مدعومة من قبل الدولة وللمهاجرين الروس فقط؛ وهنالك القبيلة الاستيطانية التي تريد تمويل «الخضار الحلال» في غزة؛ وهنالك القبيلة الزراعية التي تريد تسجيل أراضي الوطن باسم المزارع الخاصة؛ وهنالك القبيلة الشمالية التي تنشىء مدارسها الخاصة وشرطتها وجهازها الصحي الخاص. وفي مثل هذا الوضع ـ تضيف الصحيفة ـ ثمة من يدعو أنصار السلام إلى الاطمئنان والراحة: **فعندما يتحوّل الشعب قبائل، يصعب توحيده في حربٍ ضد العدو.**

وإذا نحن رجعنا قليلاً إلى الوراء، وجدنا في **الانتخابات البلدية** التي جرت في إسرائيل في العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٨، ما يقدّم شهادة أخرى على تمزّق الخارطة السياسية الإسرائيلية. فلقد تقدمت لخوض هذه المعركة ١٧٣٩ قائمة تضم عشرين ألف مرشح، وذلك لملء المقاعد في ما لا يزيد على مائة مدينة وناحية. ولم تستطع أي كتلة كبيرة أن تفرض على مرشحيها ما يفرضه الانضباط الحزبي في مألوف العادة. وقد بلغ عدد القوائم ٢٥ قائمة في مدينة القدس وحدها. ونقول عابرين إن ١٥٪ من سكان هذه المدينة يعيشون تحت خط الفقر.

هذا التشتت والتصارع في الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة، وفي الانتخابات البلدية قبلها، انعكسا على تشكيل الوزارة الإسرائيلية الجديدة. فقد لقي إيهود باراك عنتاً كبيراً في تشكيلها، وفي التوفيق بين الاتجاهات المتباينة. وقد اضطر بسبب ذلك إلى توسيع رقعة هذه الوزارة بحيث تضم أكبر عدد من الأحزاب ذات الشأن. ولقي صعوبة كبرى في الجمع بين ممثّلي الاتجاه الديني (وعلى رأسهم «شاس») وبين ممثّلي اليسار العلماني (وعلى رأسهم «ميريتس»). ونظرة سريعة على بُنية هذه الوزارة (قبل توسيعها) كافية لإبراز هذا التشتت. فلقد ضمّت الوزارة ثمانية وزراء من حزب العمل، وأربعة وزراء من حزب «شاس» المتديّن، ووزيرين من حزب «ميريتس» اليساري العلماني، ووزيراً من حزب «إسرائيل واحدة» (هو دافيد ليفي)، ووزيراً من حزب «إسرائيل بعليا»، ووزيراً من «الحزب القومي الديني (المفدال)، ووزيراً من «حزب المركز» (هو إسحق موردخاي).

٣ ـ تشتت المجتمع الإسرائيلي ومسألة الهوية:

٣ ـ ١ ـ والحق إن الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة التي أوجزنا الحديث عنها، لم تكشف فقط عن التشتت السياسي للمجتمع الإسرائيلي، ولم تكن مجرد تعبير عن الصراع الديمقراطي من أجل السلطة، بل كانت كاشفاً أساسياً عما هو أعمق من هذا؛ نعني **الصراع الاجتماعي**

والإثني والثقافي والإيديولوجي داخل إسرائيل، مما يردّنا مرة أخرى إلى أزمة الهوية التي سبق أن توقفنا عندها مراراً ولا سيما في الفصل السابع. فلقد حلّ في الانتخابات الأخيرة محلّ التنافس السياسي المتحضر والهادىء الذي كان ينصبّ على الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والأمنية وسياسات الهجرة والاستيطان والتعامل مع العرب والعالم الخارجي، خطابٌ سياسي ديماغوجي إلى حد بعيد، يلجأ إلى التجريح والاتهام والتهديد، بل إلى الكذب والافتراء والتزلف إلى المجموعات الإثنية كالروس والعرب والسفارديم (اليهود الشرقيين). وهذا الدرك الذي وصلت إليه اللعبة البرلمانية في إسرائيل لا يمكن أن يُفسَّر إلاّ بكونه نتيجة لفشل الفكر الصهيوني بعد أربعة أجيال وستة حروب مع العرب، وعجزه عن ترسيخ أسس مجتمع قومي يهودي واحد قائم على اللغة العبرية وأساطير التوراة والخروج والسبي والاضطهاد المسيحي الأوروبي والغيتو والمحرقة. وحصول إيهود باراك على أكثرية أصوات اليهود لأول مرة بعد اغتيال الجنرال رابين ومرور نيف وخمسة أعوام على سلام أوسلو مع منظمة التحرير بكل ما سبّبه من انقسامات وصراعات داخل المجتمع اليهودي عامةً، والإسرائيلي خاصة، دليل واضح على رفض الأجيال اليهودية الجديدة لطغيان الأصولية اليهودية على حياة المجتمع وقوانينه المحلية من جهة، وعلى نبذ استراتيجية الحرب ـ التي تزعم أنها تُبقي إسرائيل قوية ومتماسكة ـ تلك الاستراتيجية التي كان يتبناها اليمين القومي الإسرائيلي المتمثّل بالليكود والمفدال وحيروت من جهة أخرى[٢٩].

يُضاف إلى هذا ظهور قوة الناخبين العرب ووصول ثلاثة عشر نائباً ونائبة عنهم إلى الكنيست، وانهيار قوة المستوطنين في الكنيست الجديد هذا، والخسارة التي مُني بها في الانتخابات حزب «الطريق الثالث» الذي يستمد وجوده وقوته من رفضه التنازل عن الجولان (وقد خسر مقاعده الأربعة كلها)، وخسارة «الحزب القومي الديني» (المفدال) الذي يمثّل مصالح المستوطنين بالضفة الغربية والذي ينادي بإيديولوجية إسرائيل التوراتية (وقد خسر أربعة مقاعد من مقاعده التسعة السابقة في الكنيست)، وخسارة «الليكود» نفسه ثلاثة عشر مقعداً. بل إن النجاح الكبير الذي حققه حزب «شاس» يمكن اعتباره إلى حد كبير إخفاقاً للتيارات اليمينية ـ القومية المتشددة. فهذا الحزب الذي حصل على ١٧ مقعداً في الكنيست الجديد (مقابل ١٠ مقاعد فقط في الكنيست السابق) ـ على الرغم من تأييده لنتانياهو ولحزب «الليكود» (من أجل إضعاف قوة الإشكناز التي يمثّلها حزب «العمل» وحلفاؤه في اليسار والوسط) ـ لا يؤمن بإيديولوجية «إسرائيل الكبرى»، وهو على استعداد لمبادلة تأييده لأي اتفاق نهائي مع الفلسطينيين يشمل القدس ومعظم المستوطنات مقابل الحصول على بعض الامتيازات المادية والسياسية داخل الحكومة الإسرائيلية، لا سيما فيما يتصل بدعم المدارس الدينية (أليشوف) وبقوانين الزواج والطلاق والتهويد. يُضاف إلى هذا ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أنه يأخذ، فيما يتصل بالانسحاب من الأراضي المحتلة، بمبدأ الموازنة بين مساوىء هذا

الانسحاب ومخاطر هدر الدماء اليهودية.

٣ ـ ٢ ـ ولا شك في أن العامل الإثني (ولا سيما فيما يتصل بالصراع بين الإشكناز والسفارديم) كان حاضراً دوماً في هذه المعركة الانتخابية. وقد برز هذا العامل بوجه خاص في المواجهة بين العلمانيين وبين غلاة المتدينين (الحريديم)، وكان من عوامل نجاح حزبين في هذه المعركة، هما حزب «شاس» وحزب «شينوي».

فلقد شنّ زعيم «شينوي» يوسف لابيد حرباً شعواء على تسلّط «الحريديم» (المغالين في التشدد الديني، أصحاب الملابس السود وهم إشكناز، ومعظمهم من القادمين أصلاً من شرق أوروبا)، وعلى رفضهم الخدمة في الجيش وحياتهم الطفيلية. الأمر الذي جعل المتدينين التقليديين الشرقيين (السفارديم) يلجأون إلى الاحتماء تحت جناح حركة «شاس».

وقد بلغ لابيد في حملته على «الحريديين» حداً جعله يهاجم «الكاشروت» (الحلال من الطعام وسواه) ويهزأ بما يطالب به الحريديون من مراقبة البضائع الأجنبية لهذه الغاية، كمراقبة ورق الحمّام ومعجون الأسنان ومواد التنظيف. وقد طالب في حملته هذه بإلغاء «ضريبة الكاشروت» التي يدفعها العلمانيون أكثر من سواهم لكونهم الأكثرية، تلك الضريبة التي تبلغ ١٥٪ من تكاليف الحياة.

وحزب «شينوي» هذا ـ كما نعلم ـ حزب تم تأسيسه في السبعينيات، وكان مؤسسه الأستاذ عمنون روبنشتاين. وهو حزب يتألف من ١٠٠٪ من الإشكناز. وقد انضم ـ كما سبق أن رأينا ـ إلى حزب «ميريتس»، وعندما ترأس الحزب لابيد جعل ديدنه الأساسي كراهية «الحريديين».

٣ ـ ٣ ـ من هذا كله يتجلّى واضحاً أن الانتخابات الأخيرة في إسرائيل طرحت بشكل حاد وصارخ تلك المشكلة التي كانت تنخر في جسم المجتمع الإسرائيلي منذ نشوئه والتي كانت تتكشف للأعين يوماً بعد يوم، نعني **مشكلة الهوية** لدى مجموعة غير متجانسة من اليهود وغير اليهود أُطلق عليها اسم «دولة إسرائيل» من دون أن تملك في نسيجها الاجتماعي والإيديولوجي مقومات الدولة.

وقد ازدادت هذه المشكلة حدةً بعد أن طُرحت مسألة السلام بين هذه الدولة القسرية المتنافرة وبين العرب منذ مؤتمر مدريد. واتسع الشقاق حولها بالتالي مع «تقدم» عملية السلام تقدماً متعثراً بسببها ولأسباب أخرى. وجاءت الانتخابات الأخيرة تتويجاً لهذا كله: فإذا بـ«الإنسان العبري» Homo Hebraicus المنشود الذي أراد مؤسِّسو الدولة أن يجعلوا منه إنساناً مُزارعاً وجندياً في آن واحد، يحلّ محله شيئاً بعد شيء اليهودي الروسي والحبشي والمتديّن المتزمت أو العلماني المتوحّد. وإذا بالإسرائيلي الوسط ـ الإسرائيلي العادي ـ يغيب عن معركة الانتخابات هذه ويشكو على حد قول صحيفة **معاريف** (في العاشر من أيار/ مايو ١٩٩٩) «من كونه ينتسب إلى فئة المواطنين الأقل حظّاً في هذه

الانتخابات»، وإذا به يندب حظه العاثر، على حد قول الصحيفة أيضاً، «حظ رجل إشكنازي مستقر في البلد، مقيم في وسطها، يؤدي بين الحين والآخر الخدمة الاحتياطية في الجيش، ويدفع الضرائب.. ومع ذلك لا يلتفت إليه أحد، ولا يجد في مئات الساعات التي خصصت للدعاوة الانتخابية على شاشات التلفزيون أي دعاوة موجّهة إليه. لقد أصبح ـ بإيجاز ـ رجلاً ملّه الناس وملّ هو الناس».

ومن هنا، فإن مهمة رئيس الوزراء الجديد إيهود باراك لا تقتصر على إيجاد حلّ توفيقي (تلفيقي في حقيقة الأمر) مع العرب، بل لا بدّ له أيضاً من **أن يحقق الوفاق بين «القبائل» التي تتكون منها بلاده وأن يضع لها «مشروعاً مشتركاً» يجمعها**. ودون ذلك خَرْق القَتاد، كما نعلم. فما خلّفته المنازع الصهيونية من تخريب في بنية المجتمع الإسرائيلي بسبب إيديولوجيتها ودعاواها الأسطورية الكاذبة، لا بد أن يشتد ضراوة يوماً بعد يوم، سواء تحقّق السلام الشامل أو لم يتحقق: فالعجز عن تحقيق السلام، أو إقامة سلام ناقص قابل للانفجار، كلاهما مما يزيد في اشتعال الصراعات الداخلية في إسرائيل. **بل لعل تحقيق سلام منقوص يفرضه على العرب منطق القوة أقدر على تفجير «قنبلة الهوية»** داخل إسرائيل. فلقد كان يمسك بهذه القنبلة ويحول بينها وبين الانفجار الخوف من تعريض أمن إسرائيل وسلامتها للخطر (إلى جانب عوامل أخرى دون شك، منها صمّام الأمان الذي توفّره الديمقراطية، وإن تكن أسس هذه الديمقراطية نفسها قد اهتزّت). أما في حال السلام الزائف، فإن مشكلات الهوية الرئيسية في إسرائيل سوف تطرح دون ما وجل طرحاً لا هوادة فيه. ولا مندوحة عند ذلك، بعد أن تتحرر إسرائيل من عقدة الخوف، من أن تجيب الدولة إجابة صريحة واضحة على أسئلة جادة وراهنة طُرحت في معركة الانتخابات كالأسئلة الآتية (وكأنها عود على بدء في تاريخ الصهيونية وإسرائيل): ما هي العلاقة بين الكنيس والدولة؟ وهل يُسنّ دستور مدني علماني كما يطالب الكثيرون؟ وما رد فعل الحاخامات والمتدينين الذين يعارضون ذلك، والذين لا يؤمنون بدستور غير التوراة؟ وماذا سيكون موقف الدولة وموقف إيهود باراك من إعفاء طلاب المدارس الدينية من الخدمة العسكرية، كما هو عليه الأمر الآن؟ وهل سيُجبرون على أدائها، وما هو رد الجماعات الدينية (وعلى رأسها حركة «شاس» المشتركة في الحكم والتي تملك ١٧ مقعداً في الكنيست)؟ هذا بالإضافة إلى العديد من المشكلات الأخرى المتصلة بالهوية، والتي سبق أن أشرنا إليها في الفصل السابع بوجه خاص: قانون العودة ـ العلاقة مع يهود الشتات ـ من هو اليهودي؟ ـ اليهود الشرقيون واليهود الغربيون ـ اليهودية الأرثوذكسية واليهودية الإصلاحية ـ العرب المقيمون في إسرائيل ـ ما طبيعة دولة إسرائيل (دولة كسائر الدول ـ دولة يهودية ـ دولة علمانية)؟ ـ ما طبيعة الشعب اليهودي (شعب مقدس ـ شعب كباقي الشعوب)؟ ـ وما موقفه من الأغيار» (الغوييم)؟ ـ ما حدود دولة إسرائيل؟ ـ ما علاقة إسرائيل بدول المنطقة؟ ـ... إلخ.

وها هي ذي بواكير أزمة الهوية تطلّ علينا منذ اليوم من خلال التصدّعات الأولى في حكومة باراك منذ اليوم الأول من تشكيلها (بل قبل تشكيلها)! ومن الأمثلة على ذلك امتناع عضو الكنيست رومان بروغمان من حزب «إسرائيل بعليا» الائتلافي، عن التصويت إلى جانب الحكومة في اجتماعها الأول مع الكنيست بتاريخ ٨ تموز/ يوليو ١٩٩٩، وإعلانه الانشقاق عن حزبه مع زميله ألكسندر تسينكر، وتشكيل حركة جديدة باسم «الغد». وقد تعرّض نتيجة لذلك لاتهامه بالخيانة من قبل طرفين متناقضين من حزبه. وعلى أثر ذلك تحركت حركة «شاس» بدورها وطالبت بإزالة «الظلم» الذي لحق بها بسبب انتزاع حقيبة وزارة الداخلية منها، وهدّدت بحجب الثقة عن حكومة باراك. وقام بعد ذلك كله جدلٌ حول توسيع الحكومة، كان القوم فيه بين مؤيد ومعارض، إلى أن تم توسيعها بحيث أصبحت تضم ٢٤ وزيراً، كما سبق أن ذكرنا.

وقد عبّرت صحيفة **معاريف** عن هذا التصدع وما تلاه بقولها: «إن باراك يصل اليوم إلى رئاسة الحكومة على متن مدرعة غير محصّنة وبأجنحة تمت قصقصتها ونُتف بعض ريشها». وأقرّ بهذا الهاجس باراك نفسه وإنْ حاول تهدئة الأمور حين أعلن بعض المقربين منه عن نيته في تغيير الوزارة بعد عامين لإتاحة الفرصة أمام آخرين للمشاركة في الحكم.

٤ ـ عودٌ على بدء:

وهكذا نجد في خاتمة المطاف أن الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة كانت بمثابة كاشف لصراعات الهوية التي تعاني منها إسرائيل منذ نشأتها. بل كانت في كثير من جوانبها أشبه بنسخة ثانية عن الصراعات الإيديولوجية التي عرفتها منذ ولادة الصهيونية، والتي سبق أن فصّلنا الحديث عنها عبر كتابنا كله. وما شهدناه في هذه المعركة الانتخابية من ضروب الصراعات والتشتت ـ بين المتدينين والعلمانيين، وبين الاتجاهات المتباينة بين المتدينين أنفسهم، وبين الإشكناز والسفارديم، وبين العرب واليهود. . إلخ، إنما تمتد جذوره إلى أيام الشتات اليهودي، مروراً بالحقبة التي نشأت فيها الصهيونية، وانتهاء بدولة إسرائيل التي ولدت ولادة قيصرية، والتي انضافت فيها إلى المشكلات الإيديولوجية التي أثارتها الصهيونية مشكلات جديدة فرضها الواقع، على رأسها التباين العرقي والإثني الواسع بين المهاجرين إليها (من الشرق والغرب، ومن الروس والأحباش وسواهم) والتباين بين الذين وُلدوا قبل ولادة إسرائيل (الصباريم) وبين الذين هاجروا إليها بعد ولادتها، والصراع بين الحركات الدينية المتكاثرة والمتوالدة، والصراع بين الاتجاهات العلمانية وبين الاتجاهات الدينية، والجدل بين المنادين بمنح الفلسطينيين بعض حقوقهم وبين المدافعين عن «أرض إسرائيل» المزعومة كلها، والصراع بين المنادين بـ«إسرائيل الكبرى» التوراتية وبين القائلين بالصلة بين الأمن والسلام.

وقد أضيفت إلى ذلك كله الخلافات حول الحروب مع العرب ومخلّفاتها: حرب عام

١٩٤٨، حرب السويس عام ١٩٥٦، حرب حزيران عام ١٩٦٧، حرب تشرين عام ١٩٧٣، حرب لبنان عام ١٩٨٢.. تلك الحروب التي أثارت جدالاً داخلياً حاداً ومتنافراً، جعل كثيراً من قادة الرأي في إسرائيل وخارجها ينكرون عليها نزعاتها العدوانية ويتهمونها بأنها غدت «دولة فاشية نازية».

إنها عقدة الصهيونية بداية ونهاية: الصهيونية التي ولدت ولادة قسرية بفضل تسخير العوامل السياسية لصالحها، وبسبب تحالفها مع النزعات الاستعمارية، ولعوامل أخرى والتي تحمل معها في جوفها عوامل التمزق والشقاق، وتفتقد منذ نشأتها مقوّمات الهوية المتجانسة.

ومن هنا يظل السؤال الأساسي المطروح على إسرائيل هو: **هل تستطيع إسرائيل أن تبقى دون أن تتخلى عن منطلقاتها الصهيونية الأساسية؟** وهل من سبيل للتوفيق بين رغبتها في السلام (وإنْ يكن زائفاً ومفروضاً) وبين الحفاظ على المنطلقات الصهيونية التي لا بد لها أن تخرّب السلام من جانب، وتزيد من جانب آخر وبوجه خاص في تمزق المجتمع الإسرائيلي وتقوّض نسيجه الذي يكاد يتداعى؟ أفلا يقوم، في نهاية الأمر، تناقض ذاتي عميق بين الدعوة الصهيونية والدعوة إلى السلام، سواء أكان سلاماً داخل إسرائيل، أم سلاماً خارجها مع جيرانها؟ وهل تستطيع أن تتغلّب على شتات الرأي والعقيدة والهوية دولة صهيونية ولدت من الشتات، ومن تشتت الشتات، ومن قسر طرف من الشتات على تجمّع لا يطيقه وتأباه طبيعته؟

وههنا يجدر بنا أن نتساءل: ماذا يعني قول باراك نفسه في أول خطاب ألقاه بعد نجاحه، ويؤكد في مطلعه أن الصهيونية لن تحقق أهدافها كاملةً إلاّ عن طريق السلام؟ وهل يمكن التوفيق بين السلام وبين تحقيق الأهداف الصهيونية إلا إذا كان السلام - في نظر قادة إسرائيل - صهيوني الهدف والمآل والمستقرّ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فقد ينقلب السحر على الساحر، فيما نرى ونقدّر، وفيما تشير إليه الحقائق التي تولينا عرضها عبر هذا الكتاب حول ما تولّده الصهيونية من صراع إيديولوجي متزايد داخل الكيان الإسرائيلي. وقد تحطّم الصهيونيةُ نفسَها بنفسها وتحطّم المجتمع الإسرائيلي حين تصرّ على أن تحطّم وتلتهم سواه، وذلك حين تفقد إسرائيل مناعتها الداخلية - التي هي شرط لازم لأي مناعة - نتيجةً لغياب الهوية والثقافة المشتركة ولغياب القيم الاجتماعية المتشابهة.

وحتى لو أخذنا بأفضل تفسير ممكن لقول باراك هذا، قائلين إنه يقصد من عبارته أن الثمار الاقتصادية والثقافية والاجتماعية للسلام سوف تتيح لإسرائيل أن تهيمن على الشرق الأوسط، فإن بلوغ مثل هذا الهدف يستلزم بدوره توافر مناعة داخلية وتضامن داخلي لا يمكن توفيرهما في مجتمع لا بد أن يصبح - بحكم دوره الجديد - مجتمعاً يزداد فيه التنافس على الكسب، وتنمو فيه روح الجشع والأنانية، وتفرّخ فيه أشكال جديدة من الصراع الاقتصادي والاجتماعي تنضاف إلى الصراعات القديمة حول الهوية، وتتفاعل معها وتزيد في اشتعالها.

خاتمة

وبعد، قد يكون من المكرور المُعاد أن نقول إن مشكلة اليهود والعرب معاً، قديماً وحديثاً، هي الإيديولوجية الصهيونية، ولكن هذه الحقيقة تكتسي معنى جديداً في نظرنا، من خلال حقيقتين جعلناهما محور بحثنا:

ـ **أولاهما، أن الصهيونية حركة قومية استعمارية، فُرضت على الشعب اليهودي نفسه رغماً عنه أو عن أكثريته الساحقة على أقل تقدير**، وما كان ليتيسر لها النجاح لولا تأييد الدول الغربية لها، وعلى رأسها بريطانيا منذ البداية والولايات المتحدة بعد ذلك. وقد رأينا الشواهد على ذلك في الجزء الأول من كتابنا. ولعل من المفيد أن نؤيد قولنا هذا بما كتبه بنيامين نتانياهو في كتابه **مكان تحت الشمس** (في رده على الدّاعيين إلى نظرية «ما بعد الصهيونية») وفيه نقرأ بالحرف الواحد: **«منذ ظهور الحركة الصهيونية السياسية** وبدء عملها الجاد للنهضة القومية اليهودية، بدأت تظهر بين يهود أوروبا الشرقية حركات يسارية متطرفة تحقد بشدة على الصهيونية وأهدافها»[٣٠]. كما نقرأ في الكتاب نفسه: «كان التأييد للفكرة الصهيونية منذ البداية بين من هم غير يهود أكثر بكثير من التأييد في الأوساط اليهودية»[٣١].

ـ **وأما الحقيقة الثانية**، التي تشهد على جناية الصهيونية ووليدتها إسرائيل على اليهود أنفسهم وعلى العرب بل وعلى العالم، **فقوامها ما نجده في إسرائيل اليوم من صحوة لدى الكثير من أبنائها، تتجلّى بوجه خاص لدى «المؤرِّخين الجُدد" وعلماء الاجتماع الجُدد وسواهم من الأدباء والفنانين، وسائر الذين ينادون بـ«ما بعد الصهيونية»**. وهي صحوة يتزايد عدد أنصارها يوماً بعد يوم، وأهمّ ما فيها الحملة العنيفة على الجرائم التي ارتكبتها الصهيونية منذ ولادة إسرائيل حتى اليوم، ضد أبناء البلاد وضد العرب جملةً، وضرورة التكفير عنها. وقد رأينا أن هذه الدعوة إلى «ما بعد الصهيونية» ترى أن الصهيونية أصبحت من التاريخ، وأن عهدها قد مضى وانقضى. بل يرى كثير من روادها وأنصارها أن الصهيونية تحمل في تكوينها العضوي وبنيتها إرادة القتل والتخريب والتدمير. وحين يتحدث أصحاب هذه الصحوة ـ ولا سيما «المؤرّخون الجُدد" ـ عن ضرورة تجاوز الصهيونية، فإنهم لا يكتفون بأن يبرّروا دعوتهم هذه إلى تجاوز الصهيونية بالجرائم التي ارتكبت في حرب ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ وبما ورد حولها في الوثائق التي تمّ الكشف عنها، **بل يتناولون بالنقد والتجريح صلب الصهيونية وجوهرها، ويبيّنون بوجه خاص انعكاس «خطيئتها الأولى» على الصراع العربي ـ الإسرائيلي،**

وعلى ما يحدث اليوم من هزّات سياسية واجتماعية وخلقية تهزّ المجتمع الإسرائيلي، ومنهم من يضع موضع التساؤل والشك «شرعية» وجود إسرائيل و«حقّها في الأرض» التي تقيم فيها. ومنهم من يرى أن مسألة عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، بعد خمسين عاماً من نشوء دولة إسرائيل، أمر حيوي وضروري من أجل بقاء إسرائيل نفسها.

من هذا كله وكثير غيره يدرك العرب اليوم أن ثمة تياراً واسعاً متعاظماً في إسرائيل يضع الصهيونية - في صيغتها الأصلية على أقل تقدير - موضع التساؤل، ويرفض واقع إسرائيل ومواقفها الرسمية الحالية. وهذا التيار ليس تياراً عابراً، بل هو تيار آخذ في النمو وهو عميق الجذور، لأنه يستمد قوته من تحليله لتاريخ الحركة الصهيونية وآثامها وأساطيرها، ولتاريخ إسرائيل ومآسيها وعدوانها. وهو يشكّل خطراً حقيقياً على دولة إسرائيل إذا هي تابعت مسيرتها الصهيونية، لأنه يمثّل الحقيقة في مقابل الزيف، والمستقبل في مواجهة الماضي. ولا أدلّ على ذلك مما كتبه بنيامين نتانياهو في تفنيد هذا التيار إذ قال: «إن نظرية "ما بعد الصهيونية" هذه، تُعتبر أكثر خطورة على مستقبلنا من الهجمات الخارجية، إذ إن تنازل دولة إسرائيل عن المبادىء الصهيونية يُعتبر تنازلاً عن مبدأ حياتها، وعند ذلك تبدأ بالذبول»[٣٢].

وهذا ينقلنا في خاتمة المطاف إلى موضوع الحل السلمي. ذلك أن أهمّ ما يعني العرب تجاه مواقف هؤلاء المنادين بـ«ما بعد الصهيونية» (وهم في الواقع ذوو اتجاهات ومواقف لا تخلو من تباين) لخّصه الكاتب الفلسيطيني المعروف إميل حبيبي في آخر كتاب له قبل وفاته حين قال: «إننا لا نسأل إسرائيل أن تطلب منا العفو والغفران. ولكن من حقنا أن نطلب إليها ألا تخفي ماضينا وألا تزوّره. إن شعبنا العربي الفلسطيني كان ولا يزال الضحية الأولى لهذا الصراع الدامي. **ومن غير الممكن بناء سلم دائم من خلال قلب التاريخ رأساً على عقب**، بحيث تصبح الضحية هي الجانية والمُضْطَهِدَة والمعتدية»[٣٣].

ونزيد على مثل هذا القول أن أتباع الدعوة إلى «ما بعد الصهيونية» ومن والاهم يؤكدون أن السلم الدائم والحقيقي لا يمكن أن يقوم على الكذب والخداع. ومن هنا تلتقي مواقفهم هذه، في بعض جوانبها، مع المواقف العربية التي ترى أن الخطوة الأولى في طريق السلام هي العزوف عن الإيديولوجيا الصهيونية التقليدية وتزييفها للتاريخ والاعتراف بالتالي بحقوق العرب. **وعندنا أن رجوع إسرائيل إلى الحقّ والحقيقة ليس من شأنه أن يقدّم حلاً جاداً وباقياً لمعضلة السلام فقط، بل من شأنه أن ينقذ إسرائيل نفسها من التمزق والصراع.**

إن رئيس وزراء إسرائيل المعزول بنيامين نتانياهو لا يزل يؤمن بـ«أرض إسرائيل» المزعومة. بل يذهب إلى أبعد من هذا، فيرى «أن اليهود لم يسلبوا العرب أرضهم، وإنما العرب هم الذين سلبوا أرض اليهود»[٣٤]، مشيراً بذلك إلى بداية الفتوحات الإسلامية، وهو يقول بصريح العبارة: «إن ما يمكن تحقيقه بالشرق الأوسط - حتى الآن - هو السلام المبني

على الردع»[٣٥] والقوة. ومما يدعو إلى السخرية أنه يرى أن مثل هذا السلام المستند إلى قدرة إسرائيل على ردع العرب هو السلام الدائم والمرتكز إلى أسس متينة من الأمن والعدل والحقيقة[٣٦]. ومع ذلك، نراه يصرّح ـ بعد نجاح إيهود باراك في انتخابات ١٧ أيار / مايو ١٩٩٩ ـ «أن الإسرائيليين تعبوا من الصهيونية، ولم يعد يهمّهم سوى حياتهم اليومية». (وتصريحه هذا تصريح المستنكر، وقد أدلى به في مقابلة نشرتها صحيفة **معاريف** بتاريخ ١١ حزيران / يونيو ١٩٩٩).

ولا يتسع المقام للحديث عن شتى الجوانب التي يمكن أن نستخلصها ـ نحن العرب ـ من العرض الذي قدّمناه لمعالم الصراع بين اليهودية والقومية الصهيونية قديماً وحديثاً، ومما تريثنا عنده بوجه خاص من مواقف «المؤرّخين الجدد» في إسرائيل ومن والاهم من العلمانيين وأنصار حركة السلام وسواهم، ومما يُصاحب تلك المواقف من نمو الحركات الداعية إلى «ما بعد الصهيونية».

ولعل أهم ما ينبغي أن يعمل له العرب، في هذا الإطار، توليد فكر عربي وغربي متفاعل ومتنام مع الزمن، مهمته تعبئة الرأي العالمي ضد التزييف الصهيوني الذي ما زال يُكابر ويعبث بمشاعر الكثير من اليهود، وبمصير العالم.

ويعني هذا، فيما يعني، دفع الاتجاهات المعادية للصهيونية التي تتجلّى لدى طائفة غير قليلة من يهود إسرائيل ويهود العالم نحو القيام بخطوات عملية جادة من أجل ترجمة تلك الاتجاهات إلى خطة عمل قوامها إعادة الحقوق العربية كاملةً إلى أصحابها. ويزيد من أهمية هذه المبادرة العربية ـ الغربية المشتركة، ما نجده في الغرب نفسه، وفي أوروبا بوجه خاص، من أصداء تتعالى ضد التزييف الصهيوني للحقائق، لا سيما بعد ذيوع أفكار «المؤرّخين الجدد» وانتشارها في الأوساط الثقافية الأوروبية، سواء كانت يهودية أو غير يهودية.

وهكذا يتحدّد مصير عملية السلام ومصير إسرائيل في خاتمة المطاف بمدى قدرة إسرائيل على **تجاوز عقدتها الصهيونية المتحجرة ـ التي يعبّر عنها بوجه خاص بنيامين نتانياهو ـ ومن ورائه اليمين القومي الديني المتطرف ـ أوضح تعبير. وإذا لم تستطع إسرائيل تجاوز «خطيئتها الأولى»، نعني الصهيونية وإصلاح ما كان لهذه الخطيئة من آثار مخربة لدى الشعب الفلسطيني والشعب العربي جملة، فكل سلام سيكون مدمّراً لها أولاً قبل أن يكون مدمّراً للعرب**، لأنه سيؤجّج الصراعات داخلها ويعرّضها لفتن لا شفاء منها، ويجعل من ركوب العرب مركب السلام الزائف معها **عملية انتحار مشتركة**. فالسلام الذي يرتكز على أنصاف الحقائق والتشويه، كما يقول بنيامين نتانياهو[٣٧] نفسه، «لا بد أن يتحطم على صخرة الواقع» على حد قوله أيضاً، وهو قول يستخرج منه ما يريده هو، حين يرى أن الحقيقة الواقعية الوحيدة هي أن موافقة العرب على السلام تقوى كلما «بدت إسرائيل أقوى»[٣٨]، وأن السلام الحقّ والباقي هو السلام المبني على الردع الإسرائيلي. علماً بأن

موقفه هذا يكاد يكون موقف معظم القادة الإسرائيليين وعلى رأسهم إيهود باراك.

وقد يكون أهمّ درس نستخلصه من بحثنا كله، أن يدرك العرب أن مطالبتهم بحقوقهم كاملةً خلال عملية السلام وكشفهم عما في الموقف الإسرائيلي تجاهها من خداع وزيف، وفضحهم لاستمرار المنطق الصهيوني، من شأنها جميعها أن تضع الوجود الإسرائيلي على محك الحقيقة، وقد تؤدي إلى تصدّع الكيان الإسرائيلي من داخله. **والعرب، بداية ونهاية، ليسوا هم المسؤولين عن إيجاد مخرج لإسرائيل من ورطتها الصهيونية**، ولا يمكن أن يُطالبهم العالم بأن يدفعوا هم ثمن ما يستلزمه استمرار المنطلقات الصهيونية في إسرائيل من تنازلات عربية ومن تنكّر للحقّ العربي الواضح الصريح. ولا يعنيهم في قليل أو كثير أن ييسّروا مهمة إسرائيل حين تعجز عن إدارة ما خلّفته وما تخلّفه المنطلقات الصهيونية من عجز وقعود واضطراب وصراع في داخلها، وحين تفرض المنطلقات الصحيحة للسلام نفسها ومنطقها. **فإدارة ما خلفته الصهيونية من تناقضات وصراعات أمرٌ يقع على عاتق إسرائيل وعلى عاتق الدول الغربية التي يسّرت لها هذا الاغتصاب الفاضح للحقوق العربية.** ومن المضحك المبكي أن يُطلب من العرب التنازل عن حقوقهم خوفاً على كيان إسرائيل من التصدع. وهذا ما تقوم به حتى الآن ـ مع الأسف ـ السياسة الدولية، وسياسة الولايات المتحدة بوجه خاص، والسياسة الإسرائيلية بوجه أخصّ.

شؤون وشجون كثيرة يثيرها بحثنا هذا ولا يتسع لها المقام. وحسبنا أن نقول في ختامه:

إن بحثنا يهدينا إلى حقيقة واحدة، وهي **أن العزيمة العربية الصامدة، المؤيّدة بالتعبئة الشاملة والتضامن الفعّال، والحوار المنظّم مع الفكر الغربي والعالمي، هي وحدها القادرة في خاتمة المطاف على إحقاق الحقّ**. والحق رأيناه عبر بحثنا كله، وأكده لنا أصحاب الدعوات الجديدة في إسرائيل، وهو **أن لا حل للصراع العربي الإسرائيلي، ولا نجاة لشعب إسرائيل، ما دامت المنطلقات الصهيونية قائمة**، وما دام سيفها مشهراً في وجه العرب واليهود وسائر شعوب العالم. ويلحق بهذا أن يبيّن العرب بجلاء وقوة من خلال جهودهم الديبلوماسية والسياسية والفكرية إبان مفاوضات السلام ـ تلك الجهود الداعية إلى تخلّي إسرائيل عن منطلقاتها الصهيونية كشرط أساسي لقيام سلام عادل وباقٍ وصادق ـ أن موقفهم هذا من الصهيونية استبان صدقه واتضح دوره الأساسي حتى لدى الكثير من أبناء إسرائيل أنفسهم ولا سيما لدى أنصار «ما بعد الصهيونية» ولدى «المؤرّخين الجدد» ومن والاهم. وعندما يؤكد العرب بالتالي هذا المطلب ـ مطلب تخلّي إسرائيل عن منطلقاتها الصهيونية ـ فإنهم يؤكدون حقيقة غدت بديهية حتى لدى الكثير من أبناء إسرائيل ومن يهود العالم ومن مفكّري الغرب. وهم بالتالي ـ أعني العرب ـ لا يطلبون مستحيلاً ولا يغالون في حقهم. وعلى المجتمع الدولي أن يدعم موقفهم هذا إذا هو أراد حقاً أن يقوم سلام عادل وحقيقي في المنطقة.

والمهم، بعد هذا كله، ألا يتعجل العرب وألا يقدموا على ركوب مركب مهتز تُطوّقه الألغام لا يدرون ما مصيره، وأن يتركوا وقتاً للوقت، فالأيام حبلى بالأحداث والمفاجآت، لا سيما عندما يعرفون كيف يجندونها لصالحهم، وحين يعبئون قواهم وإمكاناتهم في شتى الميادين.

ولئن كانت إسرائيل مهدّدة بالصراعات الداخلية المتزايدة، فعلينا أن لا ننسى أنه في وسع الكثير من المجتمعات أن تعيش في أزمة وتستمر عشرات السنين دون أن تنهار من الداخل، إذا لم تُوجَّه إليها ضربة من خارجها. وإسرائيل ليست استثناءً من هذه القاعدة، على الرغم من أن الصراعات فيها مرشحة للتوالد بحكم بنيتها الزائفة الأصلية وبحكم كونها كياناً مصطنعاً غير طبيعي يطوقه كيان ليس من جنسه. وعلينا ألا ننسى دور المساعدات الخارجية في انتزاع فتيل الشقاق، وعلى رأسها المساعدات العسكرية والمساعدات المالية الأمريكية التي تزيد على ثمانية بلايين دولار لسكان يبلغ عددهم أربعة ملايين. وهكذا إذا لم يقم فعل عربي جاد وعلمي ودائب، قد تستطيع إسرائيل أن تبقى حيناً من الدهر، قد يطول وقد يقصر، دون أن تنهار من داخلها.

ومن هنا، فالفعل العربي بأشكاله المختلفة، وتعبئة طاقات الوجود العربي جميعها، والحملة العربية المنظّمة عربياً وعالمياً ضد الإيديولوجية الصهيونية، وضد الكيان الصهيوني القائم وأهدافه وسياساته، هي وحدها التي تستطيع أن تقف في مواجهة التيارات الصهيونية المتفتتة في إسرائيل ـ وهي تيارات لا تزال لها الغلبة حتى اليوم ـ وأن تيّسر بالتالي مهمة تفكيك الكيان الصهيوني من داخله وخارجه.

هوامش الكتاب

(١) من أجل مزيد من التفصيل يحسن الرجوع إلى الكتاب الهام الآتي: إسرائيل شاحاك: **التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية ـ وطأة ثلاثة آلاف سنة**، ترجمة علي سوداح، بيروت، دار بيسان للنشر، ١٩٩٥. ولا سيما الفصل الرابع منه، ص ص ١٠٧ ـ ١٥٣.

(٢) من أجل فضل من تفصيل، يحسن الرجوع إلى بحث دومنيك بوريل Dominique Bourel الذي نُشر في كتاب عنوانه: **إسرائيل: من موسى إلى اتفاقات أوسلو**، *Israël: De Moïse aux accords d'Oslo,* Paris, Seuil, 1998، ص ٢٨٦ وما يليها.

(٣) ذكر هذا النص: د. رشاد عبد الله الشامي، **إشكالية الهوية في إسرائيل**، سلسلة عالم المعرفة؛ العدد ٢٢٤، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧. ومنه نستقي أكثر حديثنا عن هذه الجماعة، ثم عن الحركة العبرية (أو الصبارية). ومن أجل مزيد من التفاصيل يحسن الرجوع إلى هذا المرجع الهام من صفحة ٢ إلى صفحة ١٠٥.

(٤) يُحسن الرجوع في هذا المجال إلى المرجع التالي: (ومنه نستقي معظم وصفنا لهذه الحركة): د. إيمان حمدي: **معسكر السلام الصهيوني**،، ترجمة صالح عزب، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٧، ولا سيما الفصل الرابع منه.

(٥) من أجل مزيد من التفصيل حول تطور الاتجاهات الداعية إلى «الثنائية القومية»، يحسن الرجوع إلى كتاب: **معسكر السلام الصهيوني**، م. س.

(٦) نقلاً عن: Hans Küng, *Le Judaïsme,* Paris, Seuil, 1995, p. 683.

(٧) شلومو بن عامي، «الشعب ضد الدولة»، **معاريف**، ١٩٩٦/٩/٢٢، ص ٣٤. ذُكر في **معسكر السلام الصهيوني**، م. س، ص ٢١٠.

(٨) لمزيد من التفصيل حول هذه الصراعات، يحسن الرجوع إلى: **إشكالية الهوية في إسرائيل**، م. س.

(٩) أفرد د. رشاد عبد الله الشامي كتاباً برأسه لموضوع «إشكالية الهوية في إسرائيل»، كما سبق أن أشرنا إليه. وهو كتاب جامع قيّم لا يدع زيادة لمستزيد.

(١٠) عبد الله عبد الدائم، **إسرائيل وهويتها الممزقة**، سلسلة الثقافة القومية؛ رقم ٣٠، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية. ويحسن الرجوع في هذا المجال أيضاً إلى الكتاب الهام الآتي: Dan V. Segre, *A Crisis Identity: Israel and Zionism,* Oxford, Oxford University Press, 1980.

(١١) من أبرزها الكتب الآتية:

- Simha Flapon, *The Birth of Israel. Myth, and Realities,* (1987).
- Benny Moris, *The Birth of Palestinian Refugees Problem* (1987).
- Avy Shlaim, *Collusion Across the Jordan* (1988).
- Ilan Pappe, *Britain and the Arab - Israeli Conflict 1947 - 1951* (1988).

- Ilan Pappé, *The Making of the Arab - Israeli Conflict, 1948 - 1951* (1992).

(١٢) Benny Moris, *The Birth of Palestinian Refugees Problem, 1947 - 1949*. Cambridge University Prees. 1987.

(١٣) يحسن الرجوع إلى الكتاب الآتي: Dominique Vidal et Joseph Algazy, *Le Péché originel d'Israël*, Paris, les Editions Ouvrières, 1998.

(١٤) في كتابه بالعبرية **من خلال منظار البندقية** *(Derech Ha - Kavenet)* الذي صدر عام ١٩٩٥. نقلاً عن: I. Greilsammer, *La Nouvelle histoire d'Israël*, Paris, Gallimard, 1998, p. 29.

(١٥) نستقي معظم ما سيرد في هذا الجزء من المرجع الآتي:

Dominique Vidal (avec Joseph Algazy) *Le péché originel d'Israël*, op. cit.

(١٦) Simha Flapan, *The Birth of Israel, Myths and Realities*, Landon and Sydney, Croom, 1987.

(١٧) Ilan Pappé, *Britain and the Arab - Israeli Conflict, 1948 - 1951*, London, Macmlillan / St. Anthony's, 1988.

(١٨) Ilan Pappé: *The Making of the Arab - Israeli Conflict, 1947 - 1951*, London, L. B. Tauris, 1992.

(١٩) أفكار أبو لغد هذه منقولة عما أورده جوزيف الغازي استناداً إلى حديث أجراه معه. انظر: Dominique Vidal et Joseph Algazy, *Le Péché originel d'Israël*, op. cit., pp. 203 - 204.

(٢٠) من المفيد أن نذكر أن نيفاً وسبعمائة ألف يهودي هاجروا إلى إسرائيل بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩٥.

(٢١) يمكن الرجوع بوجه خاص إلى الكتاب الآتي (الذي سبق وأشرنا إليه): Ilan Greilsammer, *La nouvelle histoire d'Israël*, op. cit.

(٢٢) شترنهيل هذا هو صاحب الكتاب الشهير الذي صدر عام ١٩٩٦ بالفرنسية: Zeev Sternhell, *Aux Origines d'Israël*, Paris, Fayard, 1996.

(٢٣) رشاد عبد الله الشامي، **القوى الدينية في إسرائيل: بين تكفير الدولة ولعبة السياسة**. الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٨٦، ١٩٩٤.

(٢٤) لمزيد من التفصيل حول الصهيونية غير اليهودية، انظر المراجع التالية:

- ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية ـ جذورها في التاريخ**، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز. الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٩٦، ١٩٨٥.

- محمد السمّاك، **الصهيونية المسيحية**، بيروت، دار النفائس، ١٩٩٥.

- يوسف الحسن، **البعد الديني في السياسة الأميركية تجاه الصرع العربي ـ الصهيوني: دراسة في الحركة المسيحية الأصولية الأميركية**، سلسلة أطروحات الدكتوراه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠.

(٢٥) **القرآن الكريم**، سورة النمل، الآية ٧٦.

(٢٦) عبد الوهاب المسيري: «الإمكانات الإيديولوجية الصهيونية»، بحث قُدّم لندوة «العرب ومواجهة إسرائيل» التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، من ٢٨/١١ إلى ١/١٢/١٩٩٨. انظر أيضاً تعقيبنا على هذا البحث خلال الندوة نفسها.

(٢٧) نستقي معظم ما سيرد في هذا الفصل من كتاب د. إيمان حمدي، **معسكر السلام الصهيوني**، م. س.

ولا سيما الفصل الثامن منه.

(٢٨) نقلاً عن صحيفة **تشرين** السورية في عددها الصادر بتاريخ ١/٥/١٩٩٩.

(٢٩) انظر بهذا الشأن مقال مجاهد جميل سمعان: «هل سقط الحلم الصهيوني في انتخابات مايو ١٩٩٩؟» صحيفة **القدس العربي** اللندنية، عدد الرابع من حزيران / يونيو ١٩٩٩.

(٣٠) بنيامين نتانياهو: **مكان تحت الشمس**، ترجمة محمد عودة الدويري، عمان، دار الجيل للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ٣.

(٣١) المرجع نفسه، ص ٤٨.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ٣٤.

(٣٣) Emile Habibi et Yoram Kaniuk, *La Terre des deux Promesses*, Paris, Actes Sud, 1996, p. 53.

(٣٤) بنيامين نتانياهو، **مكان تحت الشمس**، م. س، ص ٦٢.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ٢٨٢.

(٣٦) المرجع نفسه، ص ٣٦١.

(٣٧) المرجع نفسه، ص ٣٦١.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ٢٨٨.

محتوى الكتاب

- تصدير ٥
- مدخل ١٠
- الفصل الأول: القومية الصهيونية والشتات اليهودي ١٢
- الفصل الثاني: الصراع داخل الحركة الصهيونية الناشئة ١٥
- الفصل الثالث: صراع القومية الصهيونية عند نشأتها مع المذاهب الدينية اليهودية: ٢٣
١ - صراعها مع اليهودية الأرثوذكسية (الأصولية) ٢٤
٢ - صراعها مع اليهودية الإصلاحية (المجددة) ٢٦
٣ - صراعها مع اليهودية العلمانية الإنسانية ٢٧
٤ - موقف الصهيونية من الدين اليهودي ٢٨
- الفصل الرابع: الصراع بين اليهودية والقومية الصهيونية بعد ولادة إسرائيل ٣٠
- الفصل الخامس: الصراع بين اليهودية والصهيونية اليوم وحركة "المؤرخين الجدد" ٣٤
١ - نشأة «المؤرخين الجدد» لإسرائيل ٣٤
٢ - المعركة حول تاريخ إسرائيل ٣٥
٣ - "المؤرخون الجدد" وتهجير الفلسطينيين ٣٦
٤ - "المؤرخون الجدد" والأدباء وعلماء الاجتماع ٣٧
٥ - نظرة تحليلية ونقدية لحركة "المؤرخين الجدد" وأبرز أصحابها ٣٩
٦ - خاتمة ٤٨
- الفصل السادس: المواقف الدينية وواقع مسألة الهوية في إسرائيل اليوم ٥٠
١ - الاتجاهات السائدة في إسرائيل من حيث الموقف من الدين ٥٠
٢ - الصراع حول الهوية بين الاتجاهات السائدة في إسرائيل ٥٢
- الهوية العلمانية ٥٣
- الهوية الدينية: «الصهيونية الجديدة» ٥٨
- هل من فريق ثالث؟ ٦٠
- الفصل السابع: نظرة إجمالية إلى الصراع حول الهوية في إسرائيل ٦١
- الفصل الثامن: الصهيونية وحركات السلام في إسرائيل ٧٢
- الفصل التاسع: الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة والصراع حول هوية إسرائيل ٨٣
- خاتمة ٩٣
هوامش الكتاب ٩٨

المؤلّف في سطور

الدكتور عبد الله عبد الدائم:

- من مواليد حلب عام ١٩٢٤.
- دكتوراه دولة في الآداب من جامعة السوربون بباريس عام ١٩٥٦.

□ شغل مناصب عديدة منها:

- أستاذ بجامعة دمشق وبالجامعة اللبنانية.
- مدير عام لمعارف حكومة قطر (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨).
- مدير الشؤون الثقافية بوزارة الثقافة والإرشاد القومي بالإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٩ ـ ١٩٦٠).
- خبير في التخطيط التربوي والإدارة التربوية بالمركز الإقليمي لتدريب كبار موظفي التعليم في البلاد العربية التابع لمنظمة اليونسكو (بيروت، ١٩٦٢ ـ ١٩٧٢).
- وزير الإعلام بالجمهورية العربية السورية (عام ١٩٦٢ وعام ١٩٦٤).
- وزير التربية بالجمهورية العربية السورية (١٩٦٦).
- ممثل اليونسكو ورئيس بعثتها في دول غربي إفريقيا (١٩٧٦ ـ ١٩٧٨.
- رئيس قسم مشروعات التربية في البلاد العربية وأوروبا بمقر منظمة اليونسكو بباريس (١٩٧٨ ـ ١٩٨٥).
- عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق.
- عضو في مجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية.

من كتب المؤلّف الأخرى

أ ـ أهم مؤلفاته القومية والفكرية:

١ ـ **دروب القومية العربية**، بيروت، دار الآداب، ١٩٥٨.

٢ ـ **التربية القومية**، بيروت، بيروت، دار الآداب، ١٩٥٩.

٣ ـ **القومية والإنسانية**، بيروت، دار الآداب، ١٩٥٩.

٤ ـ **الاشتراكية والديمقراطية**، بيروت، دار الآداب، ١٩٦١.

٥ ـ **الجيل العربي الجديد**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦١.

٦ ـ **الوطن العربي والثورة**، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٣.

٧ ـ **التخطيط الاشتراكي**، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٥.

٨ ـ **في سبيل ثقافة عربية ذاتية**، بيروت، دار الآداب، ١٩٨٣.

٩ ـ **منبعا الأخلاق والدين** (مترجم عن برغسون بالاشتراك مع سامي الدروبي)، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.

١٠ ـ **الضحك** (مترجم عن برغسون بالاشتراك مع سامي الدروبي)، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥.

١١ ـ **القومية العربية والنظام العالمي الجديد**، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٤.

١٢ ـ **إسرائيل وهويتها الممزقة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦.

١٣ ـ **دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٨.

١٤ ـ **نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ : أصولها وأسبابها وآثارها السياسية والفكرية والأدبية في الحياة العربية**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٨.

ب ـ أهم مؤلفاته التربوية باللغة العربية:

١ ـ **التخطيط التربوي، أصوله وأساليبه الفنية وتطبيقاته في البلاد العربية**، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة، ١٩٩٧.

٢ ـ **التربية التجريبية والبحث التربوي**، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤.

٣ ـ **التربية عبر التاريخ**، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة، ١٩٩٦.

٤ ـ **التربية العامة** (مترجم عن أوبير)، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥.

٥ ـ **التنبؤ بالحاجات التربوية تحقيقاً لأهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية** (مترجم عن بارنس)، بيروت، المركز الإقليمي لتخطيط التربية وإدارتها في البلاد العربية، ١٩٦٤.

٦ ـ **الثورة التكنولوجية في التربية العربية**، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٩١.

٧ ـ **الجمود والتجديد في التربية المدرسية** (مترجم عن آفانزيني)، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.

٨ ـ **التربية في البلاد العربية**، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٩٤.

٩ ـ **التربية والعمل العربي المشترك**، بيروت، دارالعلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

١٠ ـ **التربية وتنمية الإنسان في الوطن العربي**، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

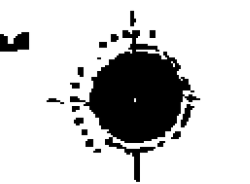
١١ ـ **نحو فلسفة تربوية عربية**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٩١.

١٢ ـ **المدارس الحديثة** (مترجم عن فلولكييه مع آخرين)، عدد خاص من مجلة المعلم العربي الصادرة عن وزارة التربية بدمشق، عام ١٩٥٣.

١٣ ـ **بحث مقارن عن الاتجاهات السائدة في الواقع التربوي في البلاد العربية**، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٣.

١٤ ـ **مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية**، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٥.

١٥ ـ **الاستراتيجية العربية للتربية في المرحلة السابقة على التعليم الابتدائي (مرحلة رياض الأطفال)**، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٦.


مطبعة دار الكتب ـ شارع عدنان الحكيم ـ مقابل ال BHV ـ بناية البارادايز ـ ٨٥٢٧٥٢ / ٠١
جميع أنواع الطباعة والتصميم (شعارنا النوعية والوقت)

٢٠٠٠/٠٠/١٢٨٣

صراع اليهودية مع القومية الصهيونية

❑ لقد فرضت القومية الصهيونية نفسها بشتى الوسائل ـ وعلى رأسها دعم الدول الكبرى ـ على الوجود اليهودي في الشتات عنوّةً وقسراً. واستمر الصراع بين اليهودية والصهيونية حتى بعد قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨.

❑ وقد أخذ هذا الصراع في العقود الأخيرة أشكالاً جديدة في إسرائيل، وضعت «هوية» إسرائيل نفسها موضع التساؤل. وبرزت بعض الاتجاهات التي عرّت الطبيعة العدوانية للكيان الإسرائيلي الصهيوني، وكشفت عن تزييفه للحقائق. وعلا صوت أصحاب هذه الاتجاهات المعارضة والناقدة بعد فتح أرشيفات وزارة الخارجية الإسرائيلية بدءاً من نهاية السبعينيات، وما كشفت عنه حركة جديدة هامّة، عرفت ذيوعاً كبيراً في إسرائيل كما لقيت قبولاً واسعاً في الغرب، نعني بها حركة «المؤرّخين الجُدد».

❑ انطلاقاً من هذه الحقائق جميعها، يخلص الكتاب الذي بين يدينا إلى حقيقة واحدة وحاسمة وأساسية: وهي أن الصهيونية هي أصل الداء، وهي «الخطيئة الأولى» كما يقول كثير من اليهود اليوم في إسرائيل والعالم. ولا حلّ للصراع العربي ـ الإسرائيلي، ولا نجاة لشعب إسرائيل نفسه، ولا نجاح لمحاولات إقامة سلام صامد باقٍ، ما دامت المنطلقات الصهيونية قائمة.

❑ والكتاب بقلم مفكّر عربي رائد له عطاؤه الواسع والفذّ في مجال الفك
القومي والتربية العربية والثقافة العالمية.

النا

دارُ الطّليعة للطّباعة وَالنشر
بيروت